

المدير: عبد الله البقالي

سنة: 56

سنة التأسيس: 1969/2/7

الخميس 25 من ربيع الأول 1447

الموافق 18 شتنبر 2025

10 ، شارع زنقة المرج حسان الرباط

Bach1969med@gmail.com

مع هذا العدد

ملف حول

الجوع في الأدب والفن

العلم الثقافي

صرخوا في الحلم، تَمَتَّرَسُوا في الحلم، حملوا السَّلاح في الحلم، طردوا العدو في الحلم، وحتى إذا استيقظوا من الحُلْم سيعسون إلى أقرب عَرَّاف أو مُنَجِّم لتفسير الحلم، وما زال العرب قادة وليس شعوبا، في حُلْمهم نائمين، بينما العدو في أرَقِه وقلقه الأبدي، لا ينام حتى استنفقنا من هول الصدمة مُتَأَخِّرِينَ وقد خسرنا كل حُلْم!

تعالوا إذا نلتقط صور الحداد بالأبيض والأسود، نُرْصِعُهَا بِعِبَارَةِ القدس لنا، فأنى لفاقد الشيء أن يُعْطِيَهُ ولو على سبيلِ الصَّدَقَةِ، لا نملك منصّة للصواريخ أو طائرات شبحية بهندسة على طراز الغدر، اللهم منصّة بروفائلاتنا على فيسبوك للرّد على العدو مع الكثير من الشجَب والتّنديد والصّرخ، لا نملك غير المسيرات نتباهى بأرقامها المليونية أو البليونية، بينما في حقيقتها مهما امتدت طوفانا، لا تتجاوز إرادة الحُكّام في الشعوب.. الشعوب بكل أعطابها الإجتماعية تجدها فرصة للتعبير عن الغضب من كل شيء في الشارع، بون أن يتهم أحد بالسُّكر العلني، تندد بالكيان ومن خلالها بتفاحش الأسعار، باحتكار الثروات، بغلاء الماء والضوء، بالتفاوت الطبقي السحيق، البطالة التي أنتجت في كل بيت عربي شهيدا، صحيح أنهم يخرجون غاضبين على إسرائيل، ولو فتحوا الحدود لوصلوا بالمقاومة براً وبحراً إلى فلسطين، ولكن يجدها المواطن العربي فرصة أيضا كي يندد بمن صنع وضعيته المقهورة في بلده، وجعله في الترتيب العالمي إنسانا أخيرا، فلا نعرف بعد أن امتزجت كل الهموم الإجتماعية بالهم الفلسطيني، هذا الإحتجاج على أيّ إسرائيل!

يا للدوحة في قمة الدوحة، فهي لم تُغَيِّر رقما أو حركة في المعادلة ولو بقلب الطاولة، لم تستنفر في هذه النكبة ترسانة الأسلحة الصّديّة اللهم باستعمال أدوات النّديّة، ألم تر إلى الناتو كيف جيش الآلاف في عملية الحارس الشرقي على حدود روسيا، لا شيء إلا لأن مُسيرة ضلت سبيلها مُتسللة إلى سماء بولندا، فماذا يجدي التهديد بالخطب الحامية والكيان بالقدس يَمَعَن في التهويد، ماذا تجدي القمم العربية وهي ليست في هاوياتها، إلا قبورا جماعية لشعوبنا في غزة والعراق وسوريا واليمن وليبيا.. والبقية ما زالت قيد التّصميم الأمريكي علينا السلام!



بريشة الرسام الفلسطيني يوسف كتلو

الدوحة في قمة الدوحة

ق قبل يوم من يقظة العرب من النّوم في قمة الدوحة، حلت الدوحة مع وزير الخارجية ماركو روبيو لفلسطين، لا شيء إلا ليعتمر الطوقية اليهودية السوداء، تعبيرا من أمريكا أن الغطاء على الرأس والعين، كيف لا والروبيو غير الأشقر، أتى ليتبرك بالطقوس التلمودية المَحْرِفَة الرعناء، مُتخذًا من حائط البُراق في القدس، مُتَكًا صِنْمِيا للإمعان في قرابين الإبادة، فيا للرسالة الأشد فتكا على الأنفس الأبية يَحْدِيهَا الصليبي واليهودي، يبعثها هؤلاء الأشرار المتلفعين بمسوح الأبحار، من نفق تحت القدس مظلم ومفتوح على حرب دينية قد لا تبقى ولا تدر، إنه المسجد الأقصى يا قادة، أما أن الأوان أن نتجاوز الصياح ببيانات التنديد إلى لغة السلاح!

ماذا نقول أمام هذا المشهد الارتكاسي، الذي يعاف أن يحاكيه بالنط والتصفيق حتى القرد، هل نستمر في رفع عقيرتنا بالأسطوانة المشروخة: القدس لنا.. على الأقل الأغاني الشجبية ستساعد الكثيرين على التخلص من دموع ما أثقلها وهي تكتم الأنفاس في الصدور، حتى إذا جرت حملت في سيلها القدس فلا هم يحزنون!

أو ننشد القُيس لنا في القصائد من يستطيع أن يحصي اليوم نسَماتها المأهولة بالأشباح، منذ شيد أول بيت شعري مع نسف أول بيت فلسطيني، من يستطيع أن يعد قصائد لم تصنع شيئا، سوى أنها حافظت على حُلْمنا الموعود من التلّف، وهما نحن اليوم ما عدنا نَفَرُق ونحن نكتب، بين الخيال والخرف، ولكن ماذا يستطيع الشّعراء، ذلك أقصى الشجن تجاه الأقصى والوطن، غير أن الناس صدّقوا الحُلْم الغاط بنومه السحيق في الأغاني والقصائد، وما أشبهه بالحلم في الوسائد، وتظاهروا في الحُلْم،



محمد بشكار



د. عبد الجواد السقاط

منجزات في الادب المغربي

جديد الباحث المغربي لدكتور عبد الجواد السقاط، كتاب يحمل صدر أخيرا عن دار القلم بالرباط سنة 2025، ويحمل عنوان «منجزات في الأدب المغربي»، وهو يواصل بهذا العمل تجميع جملة من المساهمات في مجال البحث في أدبنا المغربي، على غرار الكتيبات الثمانية التي نشرها الباحث في هذا النهج. اليوم ينشر هذه المجموعة التاسعة التي يرجع تاريخ إنجاز موادها إلى سنوات خلت، بدءا من عام 1974م، مع مساهمة «المذهبية في شعر أبي العباس الجراوي»، ووصولاً إلى عام 1992م، مع مساهمة «تأملات في القصيدة المغربية القديمة».



والمجموعة هذه، على غرار سابقتها، تنشر اليوم على الصورة التي تم إنجازها أو نشرها عليها في حينها، لتكون بذلك وفيه في إبراز مرحلة من مراحل أبحاث الكاتب في أدبنا المغربي، بما لها وما عليها.

وتبعاً لذلك بقيت الإشارة إلى المصادر كما تعامل معها مخطوطة، ولو أن منها ما تم تحقيقه ونشره فيما بعد، والشخصيات بصفاتها حين الإنجاز، أحياء أو انتقلوا إلى دار البقاء.

ويشير السقاط في ختام تقديمه لهذا المؤلف: « فإذا وجد فيها القارئ المهتم ما يشبع بعضاً من نهمه العلمي، فذلك بمن من الله وتوفيق منه، وإذا وجد العكس فليغض الطرف عن التقصير، الذي هو من طبيعة البشر».

يتضمن فهرس الكتاب: قراءة في كتاب «الفتوحات الإلهية» لسيد محمد بن عبد الله، قراءة في ديوان دعوة الحق «وفاء ولاء»، ألوان من الصنعة في الشعر المغربي، تأملات في القصيدة المغربية القديمة، من شعراء الزوايا بالمغرب: أبو عبد الله محمد المرابط الدلائي، وأخيراً، المذهبية في شعر أبي العباس الجراوي يقع هذا العمل في 187 صفحة من الحجم المتوسط.

المكان الأول

تهمُّ بالأساس انسحاق الفرد تحت نير مختلف أشكال السلط، وعجزه عن مواجهة قساوة بل وحشية الواقع التي تجرف الأحلام وترسم أفقا أسود للمستقبل.

قراءة محمد أملو موعداً أكيد مع المتعة، ومع الكتابة الجادة التي ترقى بالكلمة المكتوبة إلى درجة المسؤولية، حيث يجد القارئ نفسه متورطاً في عوالم القصص ومطالباً بالإسهام في إنتاج معناها.

من أجواء المجموعة نقترح على القارئ مقطعاً يختتم به الكاتب قصة من أجمل وأقصى قصصه، وهي قصة الحريق: «.. اشتبمت أنفاس البحر، وأدركت أنني مقبل على انفتاح كبير.. الشاطئ ممتد فارغ مثل شاطئ في كوكب غير مأهول. الألوان ناصعة قوية مثلاً كانت عليه في بداية الكون، والرمل ناعم أبيض.. ظهرت في الأفق أعداد من الطيور. لم تكن كثيرة ولكن صيحاتها واضحة مرجحة تتردد كالصدى. بدر يجري على الرمل المبلل وخولة تقلده بمشيئتها المتعثرة، تسقط وتنهض بسعادة، وعائشة تمسك بذراعي ووجهها الأبيض المضيء يوجي بأنها امرأة ولدت للتو، وليس في ذاكرتها لحظة ألم واحدة» ص - ص : 177 و 178.

محمد معطسيم، المترجم والباحث في التربية والفلسفة، حاوره العربي الحميدي، بأسئلة دارت حول موضوع ترجمة السيرة الذاتية.

وقد أضاء صفحات هذا العدد، حضور الأكاديمي والروائي المغربي محمد شيكر المنحدر من مدينة ميسور الموعلة في العمق المغربي، وقد كتب صفحة «فضاءات» حول الرواية العربية، عبر أطروحة قيمة جدا عنوانها: ليس للرواية إلا قارئ واحد أو عدد قليل.

وفي صفحة «عام» كتب القاص المغربي أحمد أعنانا، عن كوكبنا وما يتهدده من تحديات أخطاء التكنولوجيا مكلفة، رابطاً الموضوع بجسامة مسؤوليتنا جميعاً تجاه هذا الكوكب، وما يتوجب فعله لانتقاد الكرة الأرضية مما ينتظرها من أخطار.

أما صفحة «ترجمة» فكتبها الشاعر والمترجم المغربي محمد العرابي، مترجماً مقدمة الانتهاك لميشيل فوكو.

وكتب صفحة «ريشة» الكاتب المصري سيد جمعة، عن الإلياذة البغدادية للمغربي عبد الله اتهومي.

تجدد الإشارة إلى أن تنسيق محتوى العدد وتصميم غلافه، من إبداع أحمد الشياخي.

لمتابعة موقع عناقيد الثقافي: anaqeede.com

لرأسلة الموقع: anaqeed.omp.cul@gmail.com



محمد أملو



على امتداد 178 صفحة من القطع المتوسط، صدرت للقاص المغربي محمد أملو، عن منشورات سليكي أخوين، مجموعته القصصية الأولى التي أثار من العناوين اسم «المكان الأول»، وهو عنوان إحدى القصص السبع التي يضمها الكتاب بين دفتيه.

تتوَّج هذه الإضمامة القصصية رحلة طويلة برفقة القصة القصيرة قراءة وكتابة وعشفاً. وتضم علاوة على القصة - العنوان النصوص التالية: أصوات البشير، الواقف، ملاحقة، اللعبة، الطريق والحريق. تتفاوت القصص من حيث الموضوعات ومن حيث الحجم، ومنها قصص بالغة الطول تقترب من النوفيل، مثلما هو شأن قصتي المكان الأول والحريق.

يراهن القاص محمد أملو في هذه المجموعة على مناوشة فنية إبداعية لبعض الأسئلة والقضايا الحارقة (الموت، الجنون، الزمن، الحرية، السلطة...) كما يقترح علينا تصورا للقصيدة القصيرة يبنينا على منح المؤلف (السارد) مساحة سردية واسعة تخول له شحذ أدواته على مهل، خلق حكايات متقنة ومعقدة أحيانا، التوسل ببلغة حادة تروم الدقة ولا تميل إلى المجاز إلا لماما. الكتابة في المكان الأول اشتباك حقيقي مع قضايا وأسئلة

أندلسيات



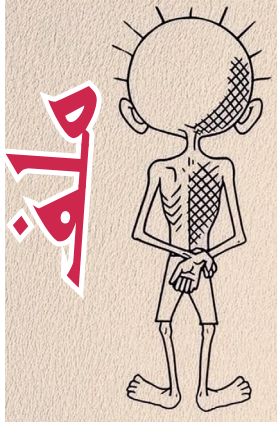
أثمر أخيرا موقع عناقيد الثقافي، بالعدد الرابع من ملحق «أندلسيات» والذي جاء ثريا في عناوينه ومضامينه، استهلالا بـ «الكلمة الشهرية» التي يكتبها رئيس التحرير الشاعر والفنان المغربي العربي الحميدي، وقد تناول فيها تجربة الشاعر الفلسطيني محمد حلمي الريشة، عبر سباحة تأويلية لمنجزه، تحت عنوان: جدلية الأداء والتأويل في الشعر.

وانتهاء بـ «صفحة مسك الختام» توقيع مدير تحرير الموقع، الشاعر والناقد المغربي أحمد الشياخي، وقد كتب فيها عن تجربة الشاعر اليمني رفيق الرضي، دراسة معمقة تحت عنوان: شعرية الانشطار بين عشقين في ديوان: «ظل وروح».

ولقد عرف العدد مشاركة نخبة من الأسماء المبدعة، من داخل المغرب وخارجه، بحيث كتب في الشعر المغربي أحمد شيكر، والسرد الكتابية الجزائرية أمينة منيصري، وكتب في صفحة «قراءات» الدكتور الشاعر والناقد الأردني عبد الرحيم جداد، عن رواية «خلق إنسانا»، كما كتب في الهايكو الباحث والشاعر المغربي عبد العالي الوالي.

أما حوار العدد فعرف حضور الأديب المغربي

ملحق في عدده الرابع



الجوع في الأدب والفن

معاون الكتابة!



جمع مواد الملف: محمد حماني

فلا ينتقصن أحد من شأن الكلم وسُمُوهُ، ومن أدب المجاعة ونُبْلُهُ في إيصال الرسائل، وإخماد القنابل. يقول الشاعر والناقد د. محمد بودويك في «نقطة نظام - أيتها الأعزاء... أيتها العزيزات: التضامن مع شعبنا الفلسطيني في غزة، وفي الضفة الغربية لا يكون فقط، - وذلك أضعف الإيمان - بتوقيع البيانات الشاجبة والمدينة والفاضة، بل، أيضا وأساسا بالانخراط في واقع مأساته وحضاره الجائر الظالم الفاشي من قِبَل إسرائيل ماديا، ومن قِبَل ذوي القربى بالصمت والتفرج والحوقة.

الانخراط بالكتابة والفضح والتعرية، وإظهار نفاق أوروبا قاطبة، وغطرسة العم سام، ونازية الصهيونية. إن تعذر علينا حمل السلاح - وقد تعذر - فلا أقل من حمل القلم والصعد به فضحا وإبرازا لدموية كيان غاصب مزروع في خاصرة العالم العربي. فهل أنتم فاعلون؟».

الكتابة عن إخواننا الفلسطينيين المجوعين الموحشين؛ لعل بعضا من ذلك يكف عنهم شيئا مما هم فيه، وإن كان ما هم فيه أشد وأصعب على من يشاهده. فكيف بمن يعيشه ويعيشه في كل يوم وساعة، ودقيقة وثانية؟ وفي هذا السياق، فقد عزمنا على توحيد جهود الكتابة في إسهام أدبي وفني وفكري معنون بـ: «الجوع في الأدب والفن»، وقد استوى الموضوع في ملف علمي رصين، أسهم فيه أساتذة باحثون، أرادوا أن ينقلوا ماذا يمكن أن يقول الأدب والفن والفكر في هذا المضمار، مع ربط ذلك بما يجري في واقنا المعاصر من صور الجوع والمجاعة إسهاما منهم في أن الأدب له رؤيته ونظريته الخاصة فيما يدور ويجري من مظاهر الجوع القائمة، واللا إنسانية.

هوامش:

- (1) معجم الدوحة التاريخي للغة العربية، مادة: «معاون»، تاريخ الزيارة: 10 ? 08 ? 2025.
- (2) ديوان الأعشى الكبير ميمون بن قيس بن جندل: تحقيق: محمود إبراهيم محمد الرضواني، وزارة الثقافة والفنون والتراث، الدوحة، ط: 1، 391/1، 2010م.
- (3) - معاني القرآن: أبو زكريا الفراء (ت: 207 هـ)، تحقيق ومراجعة: أحمد يوسف النجاتي وآخرين، الدار المصرية، القاهرة، 1955/3، 295/3م.
- (4) - الغرابوي فاطمة، «الجوع وأثره على جسم الإنسان»، مجلة العربي، العدد: 318، 1 مايو 1985، ص: 126.

الشر المطلق يملك أسباب المنع، ويرى في «التجوع» سلاحا من أسلحة المواجهة والفتك؛ فترى الناس صرعى يساقطون كالفرش المبعوث من الجوع الشديد. وقد تساقط الأطفال بشكل أكبر؛ لأنه لا قدرة لهم على المقاومة من شدة ضعف المناعة، فسوء التغذية له ما له آثار جانبية على جسم الشخص وحياته: «إن سوء التغذية، عموما، هو صورة من صور الحرمان الغذائي، فإذا كانت التغذية غير متوازنة انتشرت الالتهابات والأمراض المزمنة، خاصة حالات الإسهال والتهابات الجهاز التنفسي. فنجد ارتفاعا ملحوظا في نسبة وفيات الأطفال دون سن السادسة» (4).

ومهما يكن من أمر العجز؛ فهناك سلاح له وقعته على الجراد الغاصب المجوع. إنه سلاح الكلمة المتضامنة، والرأي الفاضح لما يقوم به المجوعون المتآمرون عن إنسانية الإنسان. إنه معاون الكتابة الذي لا ينضب غذاؤه ومِيعته.

ما يعانيه إخواننا الغزيون من مجاعة، أو تجوع - بتعبير أدق أصبح - يصعب تفسيره، أو حتى التفكير فيه؛ لأنه أمر يفوق الخيال ويقترّب من الجنون. إنه الجنون الذي خاطبه أحدهم؛ قائلا: «أيها الجنون أنت عقل هذا العصر». فبأي منطق أو بلاغة يمكن تحليل ما تراه أعيننا من صور و«فيديوهات» قادمة من غزة العزة عن الإنسان المجوع الذي خذله أخوه الإنسان، الذي ينعم بكل ما لذ وطاب؛ بينما الغزي يشكو الإعطاب التي تركها التجوع الممنهج الذي غدا - في يد المجوع - سيوطا وسلاحا لا يقل فتكا عن السلاح المادي، الذي لم تتوقف آلهة المللعة الهادرة عن النيل من إخواننا الغزيين. فماذا أنت فاعل أيها الإنسان لأخيك الإنسان؟ فكيف لإنسان مهزوم عاجز ثاو أن يقوى على مد «معاون» الطعام لأخيه الغزي الذي يتضور طوى ويتوجع ألما من كنيع الجوع، وناره التي أضرمت في كل زاوية؟ نعم، كيف للإنسان المهزوم ماديا، المهزوم نفسيا أن يقوى على امتلاك الشجاعة والإقدام أمام القوة العسكرية الضاربة، والسلاح الناري الفتاك؟

والمعاون له دلالات متعددة، هنا، فقد يُقصد به «ما يُنتفع به من متاع ومال ونحوهما» (1)؛ كقول الأعشى الكبير يمدح بعض الطائيين بالكرم (2)؛

وَلَيْسَ كَمَنْ دُونَ مَاعُونِهِ

خَوَاتِمُ بَخْلٍ وَأَقْصَالُهَا

والمقصود غاية القصد: «ما يُمنع عن الطالب»، والمعاون في عند بعض العرب: «الماء»، قال أحدهم يصف سحابا ماطرا: «يمج صَبِيرُهُ المَاعُونَ صَبًا» (3). ما كنا نعرفه هو أن المجاعة أصابت عديدا من المجتمعات قديما وحديثا؛ إما بسبب الكوارث الطبيعية، أو بسبب الأوبئة والأمراض، فيكون الطعام مفقودا ليس في تناول اليد. أما صور الجوع التي التي يُشاهدها القاصي والداني، القوي والضعيف، القادر والعاجز في فلسطين - هي صور مختلفات. صور من بطش «الإنسان»، إنسان الشر المطلق وتماديهِ الأحمق في الجور والطغيان والفساد في الأرض. ويمنع معاون الطعام عن إنسان لا حول له ولا قوة؛ لأن إنسان



من أعمال الرسام الفلسطيني يوسف كتلو



د. فريد أمعشرو

ونفسه أبية شامخة مترفعة لا ترضى بذلك؛ لذا، لم يستسج حياة مبنية على الرغم والذلة والضعف، وفضل عليها الموت بكبرياء؛ ف«الموت خير من حياة علي رغم»؛ كما قال أبو خراش في المصراع الأخير، وكما قال قبله عروة الصعلوك: «وكل منأيا النفس خير من الهزل»؛ أي: من الجوع والهوان والوئي. وهذه من الخصال التي عرف بها العربي الأصيل في الجاهلية والإسلام، وعكستها أشعاره بطبيعة الحال.

ويجسد شعر الحطينة واقع الفقر والحاجة على نحو جلي، لاسيما وأنه عاش حياة قاسية للغاية، أثرت فيه أيما تأثير؛ لتخلق منه كائنا يائسا متبرما، كثير السخط والهجو؛ بحيث لم يكد يسلم من لسانه أحد، بمن فيهم أفراد عائلته، بل إنه هجا نفسه كذلك! فقد قال، مثلا، مغبرا عن عوزه وجوعه، وسوء حاله هو وعائلته:

وطاوي ثلاث عاصب البطن مرمِل
أخي جفوة فيه من الإنس وحشة
يتبهاه لم يعرف بها ساكن رَسْمَا
يرى البؤس فيها من شراسته نغمي
وأفرد في شعب عجوزا إزاءها
ثلاثة أشباح تخالهم بهما
حفاة عراة ما اعتدوا خبر ملة
ولا عرفوا للبر، مد خلقوا، طعما

فالشاعر وأشباهه/ أبناؤه يتدنون جوعاً، لا شيء معهم، ولم يذوقوا طعم الأكل أياما، وحفاة عراة، وفي ذلك تناص مع الحديث الشريف الذي روته أم المؤمنين عائشة، رضي الله عنها، والذي نصه: «يُحْشَرُ النَّاسُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حَفَاةَ عَرَاةٍ غُرْلًا». ومما زاد من سوء حالهم وبؤسهم قسوة المكان الذي احتضنهم، ووحشته وقراغه المخيف، حتى غدا رديف الموت البطيء.

وللفردق أشعار في هذا الباب، يحكي في بعضها قصة العربي، وهو يجابه الفقر والموت في الصحراء، ويستमित في المواجهة إلى أن يغالب الجوع القاتل، ولم يكن عوزه حائلا أمام إصراره على الصمود والانتصار، وهو المنتسب إلى أرومة ملؤها الكرم وعزة النفس. ولذا، رأيناه يجود ولو بزاده النزر اليسير، فيدعو بعض وحش الخلاء إلى أن يشاركه وجبة عشائه المتواضعة، أخذا عليه ميثاقا بالوفاء والثقة وعدم الخيانة، داعيا إياه إلى مصادقته ومصاحبته، وهما الجائعان المحرومان معا، وإن كانا من جنسين مختلفين. يقول في قصيدته النونية الشهيرة:

دَعَوْتُ بِنَارِي مُوهِنًا فَاتَانِي
وَأَيَّاكَ فِي زَادِي لَمْ شَتَرَكَانِ
أُطْلِسَ عَسَالٍ وَمَا كَانَ صَاحِبَا
فَلَمَّا دَنَا، قُلْتُ: أَذُنُ دُونِكَ إِنِّي
عَلَى ضَوْءِ نَارٍ مَرَّةً وَدَحَانِ
فَبِتِ اسْوَي الزَادِ بَيْنِي وَبَيْنَهُ
وَقَانِمُ سَيْفِي مِنْ يَدِي بِمَكَانِ
تَعَشَ فَإِنْ وَاقَتْني لَا تَحُونِي
تَكُنْ مِثْلَ مَنْ - يَأْذِبُ - يَصْطَحِبَانِ

وعلى الرغم من أن العصر العباسي كان عصر رخاء وازدهار بالنسبة إلى العرب، فإنه لم يخل من فقر وفقراء، ولاسيما في بدايته ونهايته؛ لذا انبرى بعض شعرائهم للتعبير عن هذا الوضع، والشكوى منه، وتبيان وقعه على المكتوبين بلطاه؛ من منطلق أن الشاعر الحق يلزم أن يرتبط بمجتمعهم وعصره، وينقل آلامه وآماله، ويبتعد عن الإغراق في عوالم الخيال البعيدة عن الوقائع الحادثة. فهذا أبو المخنف البغدادي يدعو الشعراء إلى وصف الواقع المعيش، ولاسيما واقع الفقر والحرمان والبؤس، واستهلال قصائدهم بهذا الوصف، بدل مسابرة أسلافهم، أو معاصريهم ممن يعيشون أوضاعا اجتماعية واقتصادية مريحة، في بدء أشعارهم بمقدمات طليية أو خمرية أو غزلية؛ فهذا مما يجب



إِنَّ مَنْ يُلقَى نظرة - ولو عَجَلَى - على ما بأيدي الناس من الشعر العربي اليوم، يدرك أن الجوع حاضر فيه منذ القدم. وليس في الأمر ما يُستغرب إذا عرفنا - أولا قبل كل شيء - متانة علاقة الإنسان العربي بجماعته ومجتمعه؛ ومن ثم عمق تفاعله مع واقعه المعيش، وحرصه على نقل كل ما يموج داخله، والتعبير عنه بغير قليل من الصدق موضوعيا وفنيا.

فقد وصلتنا من العصر الجاهلي، الذي ميّزته ظروف صعبة، تعد معها المجاعة أمرا متوقعا في أي وقت، أشعار في الجوع والحاجة، أبدها عدد من شعراء المرحلة، يستشف منها قارئها واقعا مزريا، عيش عهدئذ في مواسم ومناطق معينة من شبه الجزيرة العربية، وخلف آثارا قاسية على الأفراد والجماعات، وقاد إلى اعتداءات وأعمال عنف في كثير من الأحيان؛ كما عكس ذلك - بجلاء - شعر الصعاليك.

فهذا عروة بن الورد يعبر عن سوء حاله وحال عياله، ووجوده بين المطرقة والسندان؛ تحت وطأة الفاقة والجوع والحرمان؛ مما اضطره إلى الإتيان بأفعال عدائية، غير مقبولة من المجتمع العربي الأصيل بتاتا، ولكنه يحاول أن يضيف عليها «مشروعية»، ويلتمس لنفسه الأعذار عن ذلك. يقول:

وَمَنْ يَكُ مِثْلِي ذَا عِيَالٍ وَمُقْتَرَا
لِيُبْلَغَ عَذْرَا أَوْ يَصِيبَ رَغِيْبَةً
لَعَلَّكُمْ أَنْ تَصْلَحُوا بَعْدَ مَا أَرَى
يُؤَوُّونَ بِالْأَيْدِي وَأَفْضَلَ زَادِهِمْ
مَنْ الْمَالِ يَطْرَحُ نَفْسَهُ كُلَّ مَطْرَحٍ
وَمُبْلَغُ نَفْسٍ عَذْرَاهُ مِثْلَ مَنْجَحٍ
نَبَاتُ الْعَصَاةِ الثَّائِبِ الْمَتْرُوحِ
بَقِيَّةُ لَحْمٍ مِنْ جَزْوَءِ مَمْلُوحٍ

وتتكرر مثل هذه المعاني في أشعار صعاليك الجاهلية؛ كالسليك بن السُلَكة والسَّنْفَرى الأزدي وتابط شرا، الذين اعترلوا قبائلهم أو عزلتهم، وتحوّلوا إلى نمط عيش مغاير في الفقر، وعلى الهوامش؛ فكثر في شعرهم الحديث عن الفقر والبؤس والجوع أيضا. ومن المعلوم أن من القيم الأصيلة في المجتمع العربي، منذ الجاهلية، الكرم والبذل؛ لذا طالما تغنى شعراؤه بهذه الصلة، وافتحروا بها، وإن كانوا في حال من الخصائص والحرمان، حتى إنهم إذا لم يجودوا بالكثير، كانوا يبذلون على قدر الوسع للسائل والمحتاج. ولكن حين ينتشر الجوع والفقر المدقع في المجتمع، يكون صعبا الحديث عن هذا الكرم. وأمام هذا الواقع، ألفينا الشاعر الجاهلي، في كثير من الأحيان، يتعفف مسنداً بأفئته وكبريائه، ولا يرضى بمد يده لأحد استجداء وتسوّل، مؤثرا عن ذلك التحمل إلى أن يتحسن الوضع، أو ينال بغيته. قال عنتره بن شداد:

وَلَقَدْ أَبَيْتُ عَلَى الطَّوْى وَأَظْلُهُ حَتَّى أَنْالَ بِهِ كَرِيمَ الْمَأْكَلِ

ونلمس هذه الأنفة لدى آخرين؛ مثل الشاعر المخضرم أبي خراش الهذلي، الذي لم يجد ما يطعمه أياما؛ فساعت حاله، مظهرًا ومخبرًا؛ فاشفقت عليه امرأة كريمة، وبادرت بذبح شاة لإطعامه، ولكنه أبى ذلك بشدة، مُصِرًا على أن يظل على ما به من الطوى، مكتفيا بشرب الماء، وقال لتلك المرأة الهذلية: «يا ربة البيت، هل عندك شيء من صبر أو مر؟»، فقالت: «تصنع به ماذا؟»، فأجابها بأنه يريد، فما كان منها إلا أن أتته بشيء مما طلبه؛ ف«اقتحمه، ثم أهوى إلى بعيده، فركبه، فناشدته المرأة، فأبى، فقالت له: يا هذا، هل رأيت بأسا أم أنكرت شيئا؟ قال: لا - والله - ثم مضى». قال أبو خراش:

وَأَنِّي لَأَتُوِي الْجُوعَ حَتَّى يَمَلَّنِي
فَيَذْهَبَ لَمْ يَدْنَسْ ثِيَابِي وَلَا جِرْمِي
وَأَعْتَبِقَ الْمَاءَ الْقَرَّاحَ فَانْتَهِي
إِذَا الزَّادُ أَمْسَى لِلْمَرْجِ ذَا طَعْمٍ
أَرْدُ شُجَاعَ الْجُوعِ قَدْ تَعْلِمِينِي
وَأَوْثُرَ غَيْرِي مِنْ عِيَالِكَ بِالطَّنَمِ
مَخَافَةَ أَنْ أَحْيَا بِرَغْمٍ وَذَلَّةٍ
وَلَمَمْتُ خَيْرَ مِنْ حَيَاةٍ عَلَى رَغْمٍ

فالشاعر قد رفض ألَبَّةَ عَرَضِ تلك المرأة، التي رقت لحاله البئيسة، وعدّه قرين المذلة والهوان،

تَرَكُهُ ما دام لا يتناسب مع الواقع المائل، ولا يعبر عنه بما يكفي من الصدق، وتغيير البوصلة في اتجاه وصف الرغبة/ الخبز، الذي كان تحصيله هاجسا مؤرقا لدى الكثيرين في ذلك الوقت. يقول أبو المخفف:

دَعْ عَنْكَ رِسْمَ الدِّيارِ وَدَعْ صِفَاتِ القِفَارِ
وَعَدَّ عَنْ ذِكْرِ قَوْمٍ قَدْ أَكْثَرُوا فِي العِفَارِ
وَدَعْ صِفَاتِ الرِّانِيَةِ بِرَفِي خُصُورِ العِذارِي
وَصِفْ رَغِيْفًا سَرِيًّا حَكْمَتَهُ شَمْسُ النُّهَارِ
أَوْ صُورَةَ البَدْرِ لَهَا لَسَّ نَتَمَّ فِي الاسْتِدارِ

ومما قاله المرحوم شوقي ضيف عن هذا الشاعر: «من الشعراء البؤساء التّعساء أبو المخفف، وكان في عصر المأمون، واضطرتّه تعايسة ويؤسه أن يتكفّف للناس في بغداد، ويسألهم صباحا ومساء رغيفا أو كسرة خبز، وقلمًا كان يجد من يمد إليه يد شفقة أو رحمة. وله أشعارٌ مختلفة في وصف الرغبة، يتغلّ به فيها غزل العاشق المحروم، الذي لا يعرف كيف يلقي محبوبه، وهو يبحث عنه - ويدور - في شوارع بغداد، لا يكل ولا يمل، منتقلا من دار إلى دار، ومن حانوت إلى حانوت، عساه يحظى بمن يحل له، ويقدمه إليه». ونجد مثل هذه المعاني، التي مدارها على وصف واقع الفقر والعوز والاحتياج، عند شعراء ومبدعين آخرين من عصر بني العباس؛ كما تحكي عن ذلك مقامات الهمذاني والحريزي وغيرها؛ فقد صوروا ما كانوا يعانون جراء ذلك، واضطروا إلى طرق أبواب التكسب والاسترزاق بشعرهم؛ من خلال مدح الخلفاء والأمراء وعلية القوم، وإلى الاستجداء والتسول بأشعارهم تصريحا وتلميحًا؛ فانهضت الكلمة الشعرية على ألسنتهم، وفقدت بريقها الذي كان لها في الأيام الخوالي، وتراجعت معها منزلة قائلها إلى مستويات دنيا.

وسيعود الشعر العربي إلى الارتباط القوي بواقع الناس البسطاء، والتعبير عن بؤسهم وفقرهم وجوعهم أيضا، بسقوط الدولة العباسية، ودخول العرب والمسلمين في طور من التردّي والانتكسار والتراجع، دام زمنا ليس بالقصير، تداخلت عدة عوامل - داخلية وخارجية - في رسم معالمة، وفي مقدمتها التمسكون بزماد السلطة السياسية والدينية؛ فساد المجتمع العربي حالة من الظلم والرشوة والفساد والانتكاس، أفقدت الناس الثقة في ذاتهم، واضطرتهم إلى عيش واقع قاس رُغما عنهم، وهم الذين يتباهون بتاريخ مشهود من المجد والسؤدد، ولأسيما منذ أن أكرمهم الله تعالى بالإسلام. ومن هنا، كان لا مناص من أن ينخرط الشعر، بقوة، في هذا الجو العام؛ حيث «غطى الفقر مساحة واسعة من جسد الدولة العربية في العصر المملوكي؛ فقد جعل الإنسان لا يقدر على سد رفقته ورمق من يعلية، وهو ما ترك أثرا واضحا في مدونة الشعر العربي؛ فغالب النصوص الشعرية، التي وصلت إلينا من ذلك العصر - والتي شقت طريقا صعبا في دهاليز العتمة الزمنية -، لامتست موضوعة الجوع بصورة مباشرة؛ وذلك عبر شكوى الشاعر حاله وحال عياله، أو من خلال النصوص الوصفية لأصناف الطعام، التي - بدورها - تعبّر عن رغبة الشاعر في الحصول عليها» (عماد جعيم العبودي). ومن تلك النصوص، التي يمكننا الاستشهاد بها، ها هنا، قول الإمام شرف الدين البوصيري يشكو حاله وحال عياله، ويصف ما حل بهم جراء الفاقة والحاجة، معبرا عن شعوره بالأسى والتحسر، وهو يرى ذلك المشهد الأليم:

إلَيْكَ نَشْكُو حَالَنَا إِنَّا
أَحْدَثُ الْمَوَلَى الْحَدِيثُ الَّذِي
صَامُوا مَعَ النَّاسِ وَلَكِنَّهُمْ
إِنْ شَرِبُوا فَالْبَيْزُ زَيْرٌ لَهُمْ
لَهُمْ مِنَ الْخَبِيزِ مَسْلُوقَةٌ
أَقُولُ مِمَّا أَجْنَعُوا حَوْلَهَا
وَأَقْبَلَ الْعَبْدُ وَمَا عِنْدَهُمْ
فَارْحَمَهُمْ إِنْ أَبْصَرُوا حَكْمَةً
تَشْخِصُ أَبْصَارَهُمْ نَحْوَهَا
فَكَمْ أَقَاسِي مِنْهُمْ لَوْعَةٌ
كَمْ قَائِلٌ : يَا أَبَتَا مِنْهُمْ
جَرَى لَهُمْ بِالْخَبِيزِ وَالْإِبْرَةِ
كَانُوا لَمَنْ يَبْصُرُهُمْ عَيْرُهُ
مَا بَرَحَتْ وَالْبَشْرَةُ الْجَرَّةُ
فِي كُلِّ يَوْمٍ تَشْبَهُ النَّشْرَةَ
تَنْزَهُوا فِي الْمَاءِ وَالْخَضِرَةِ
قَمَحٌ وَلَا خَبِيزٌ وَلَا قَطْرُهُ
فِي يَدِ طِفْلِ أَوْدَاؤِ تَمَرِهِ
بَشِيْقَةٌ تَسْبَعُهَا زَفَرُهُ
وَكَمْ أَقَاسِي مِنْهُمْ حَسْرَةٌ
قَطَعَتْ عَنَّا الْخَبِيزَ فِي كَرِهِ

ولعل الخبز من أكثر أصناف الطعام ترددا في أشعار العرب؛ فهو مادة أساسية بالنسبة إليهم، لا تكاد تخلو منه موائدهم، في كافة الوجبات، بالنهار والليل، ويعد غيابه من البيت علامة على حلول الفقر والجوع بذويه. لذا، فإن ذكره في أشعارهم دليل على تعلّقهم به، وسعّيجهم إلى الحصول عليه بأي وسيلة، حتى وإن كان



ذلك بالتسول والاحتياال والسطو كذلك. يقول سراج الدين الوراق:

بَشْرِنَا بِسَلَةِ الْخُبْزِ جُنْبِي وَأَفْرَجِي مِنْ رَغْفَانِهَا بَغْلَامِ
رَقَصِيهِ مَرْبِيبَ الْحَدِّ بَادِي إِحْسِنْ يَجْلُو وَجْهًا كَبْدًا التَّمَامِ
فَهُوَ يَغْنِيكَ عَنْ سِوَاهُ وَلَا يَفْ نِيكَ عَنْهُ شَيْءٌ وَذَوْقِي كَلَامِي
وَدَعِينَا عَنِ الْإِدَامِ وَعَدِي إِذْ قَدَرْنَا قَدْ أَذْنَتْ بِالْفِطَامِ

فقد شبّه سلّة الخبز بامرأة حامل، تنتظر ازديان فراشها بغلام (رغيف) بادي الحسن، يغنيها عما سواه من الإدام ونحوه. ولا ريب في أن هذا الانتظار، بمنتهى الشفخ والتربص، يحمل أكثر من دلالة على شدة التعلّق به، والتلهف إليه، في ظل ما كان يعيشه الشاعر وذووه من ضروب المعاناة والحرمان، وهو ما جعله يرى في نيل سلّة خبز أقصى طموحه، دون أن يحلم بما وراءه من إدام ومزق وشهيّ المأكولات الأخرى؛ فهو يطلب منها الحد الأدنى، الذي يسد به الرفق، ويستكت الأمعاء الجائعة. ولعل من أبلغ الشواهد على شدة احتياج سراج الدين وجوعه اضطراره إلى أكل الدانة التي كان يركبها، وذلك بسبب المجاعة التي عرفتها مصر سنة 665هـ، على الرغم من نهي السنة النبوية عن أكل الحمير وكل ذي ناب منذ يوم خير. يقول:

وَمِنْ فِرْطُ فَقْرِي وَاحْتِاجِي يَعْذُكُمُ وَيَذُلُّ مُجِئًا بِالْخَبِيزِ مُسْتَرًّا
أَكَلْتُ حِمَارًا طَالَمَا قَدَّرَكُنِيهِ كَأَنِّي لَمْ أَسْمَعْ بِأَخْبَارِ خَبِيرٍ

وبخلاف أكثر شعراء تلك الحقبة، الذين تناولوا موضوع الفقر، وما يتمخض له، بنبرة فيها من الجدّ الشيء الكثير، وجدنا بعضهم يعبر عنه بأسلوب لا يخلو من سخرية وفكاهة، ولكنها من الهزل الدال، الذي يصبو إلى إيصال رسائل قوية إلى المتلقين، تنطوي على فيض من الإدانة والسخط والتحسر. يقول ابن دانيال الموصلّي:

لَقَدْ هَجَرْتُ بَيْتِي الْقِطَاطُ لِنَقْدِهِ وَأَصْبَحَ كَلْبِي لَا يَرِي صُورَةَ الْعَظْمِ
وَكَانُونُ قَدْرِي مِثْلُ كَانُونِ بَارِدٍ وَمَلَّ عَلَيْهِ الْعَنْكَبُوتُ مِنَ الْبَرَمِ
وَأَمْسَتْ مَنَادِيلُ الْخَوَانِ كَأَنَّهُا طِيَالِسُنَا إِذْ لَمْ تَعُدْ مِنَ الزَّهْمِ
وَصَارَتْ قَدُورِي وَهِيَ شَبَّ مِنَ الطَّوِي كَأَن لَمْ تَكُنْ يَوْمًا تَعُدُّ مِنَ الدَّهْمِ
وَقَدْ هَجَرْنَا النَّمْلَ بَعْدَ تَوَابِلِ لَنَا أَحْرَتْ عَنَّا وَذَلِكَ مِنْ قِسْمِي
سَقَى اللَّهَ أَيَّامَ الْهَرِيسَةِ وَإِسْلَا مِنْ الدَّهْنِ مَا يَنْفُكُ هَيْدَبَهُ يَهْمِي

فقد ارتأى الشاعر أن يصوّر واقع البؤس والفقر الذي حل ببيته، بعدما كان يحيى عيشة منعمة، من خلال إشراف بعض الكائنات والأواني في تشكيل تلك الصورة؛ فقد كان بيته، في ما مضى، مليئا بالخير وأصناف شتى من الأكل الدسم، وكانت قدره ومراحله تغلي دوما بالطبخ وصنع المأكولات، التي لا يطعمها أهله فحسب، بل كانوا يشركون في ذلك الحيوانات أيضا. ولكن ذلك صار من الماضي الذي انقطع، ليحل محله البؤس والطوى؛ فساعت أحوال

الجميع من أولئك البشر والحيوان، وظهرت عليها أمارات التأثر السلبي بالوضع الطارئ؛ بحيث هجرت بيته القطط والنمل، وحُرم كلبه من مجرد رؤية العظام، ولاح البرم على العنكبوت، وأضحى كانون قدره باردا؛ إذ لم تجد النيران تشيعل فيه، بعد أن كان دائم الانتقاد.. إنه لتحول مأساوي حل ببيت الشاعر؛ فترك أثره القاسي فيه وفي غيره، ولم يسلم من ذلك حتى النمل والعنكب!

يشير نصّ ابن دانيال إلى أمر، يترتب عادة عن سيادة جو الحرمان والجوع في مكان ما، وهو الهجرة عنه، ومغادرته إلى فضاءات أخرى، تتوافر فيها ظروف العيش والأمن، على أن ذلك ليس مقصورا على الحيوانات والحشرات فقط، بل يتصل ببني البشر من باب أولى؛ فقد دفعت المجاعة الناس إلى التحرك، وترك مساكنهم، والضرب في الأرض؛ بحثا عن أماكن أفضل حالا من التي غادروها. وتنفل الكتب التاريخية والدينية حركات هجرة كثيرة، كان الداعي إليها الجوع والفقر وشظف العيش؛ فنبو إسرائيل وفدوا قديما على أرض الكنانة هربا مما أصاب بلادهم من صنوف الجذب والمجاعة، وفي التوراة أنه «كان جوع في الأرض؛ فهبط أبرام إلى مصر لينزل هناك إذ اشتد الجوع في الأرض». وعرف العرب، على امتداد تاريخهم الطويل، سلسلة من المجاعات والقحوط، لاسيما وأن شبه الجزيرة العربية منطقة يغلب عليها مناخ صحراوي جاف قاس، يضطر سكّانها إلى التحرك بحثا عن الماء والكلا، لهم ولماشيتهم. ولذا، لا نستغرب كثرة حديث مؤرخيهم عن ذلك في تصانيفهم، وتعبير مبدعيهم عنه في أشعارهم وكتاباتهم وأمثالهم، وتعدد مرادفات الجوع ومستوياته ودرجاته في لغتهم؛ ذلك بأنهم «كثيرا ما نزلت بهم السنون، وأخذتهم المجاعات؛ فنالت منهم، يذُلُّنا على ذلك ما في لسانهم من المترادفات الجمة عن القحط والجذب، وعن الجوع وأنواعه وأطواره وطبقاته؛ من الجوع، إلى الغرث، إلى السغب، إلى اللغب، إلى الخرص، إلى الخمص، إلى الطوى، إلى الخوى... إلى غير ما هنالك من المفردات والجمل التي تدل على اعتياد أهل البادية مثل هذه الحال» (أنطون الجميل).

وقد حشدوا للتعبير عن المجاعة أساليب بلاغية متنوعة؛ من تشبيهات واستعارات ومجازات وكنايات وغيرها، بل إنها تحضر كذلك في ألغازهم الشعرية؛ كما لدى الشاعر المملوكي، الذي جعل «من الطعام موضوعا للتلفيز؛ فتارة يلغز برغيف الخبز، وأخرى بالكنافة والقطائف... والذي يثير الانتباه كثرة النماذج المتوافرة التي تعكس رؤية عميقة، تتعدى البنية السطحية للنصوص الشعرية» (عماد العبودي)؛ من مثل قول علاء الدين بن الكلاس:

وَمُسْتَدِيرُ الْوُجْهِ كَأَتَرَسٍ يَجْلِسُ لِلنَّاسِ عَلَى كُرْسِي
يَدْخُلُ مِثْلَ الْبَدْرِ حِمَامَهُ وَيُعِدُّهَا يَخْرُجُ كَالشَّمْسِ
يُؤَاصِلُ السُّلْطَانَ فِي دَسَنِهِ وَاللَّصَّ فِي هَاوِيَةِ الْجَبْسِ
لَوْ غَابَ عَنْ عَنْتَرَةِ لَيْلَةٍ وَهَتْ قَوَى عَنْتَرَةِ الْعَبْسِ

فهذا اللغز مفتاحه الخبزة، ولا يستطیع أي كان الاهتداء إليه ما لم يعمل ذهنه وعقله جيدا، وما لم يرتبط بين أجزاء الصورة وقرائن عباراتها.

لقد اتضح لنا، بالفعل، أن تاريخ الشعر العربي - إلى حدود العصر المملوكي خاصة - لم يخل، في مختلف محطاته، من التعبير عن مواضيع الفقر والحاجة والجوع، ومن التطرق إبداعيا إلى مسباتها وتحدياتها وآثارها وأبعادها، على نحو مباشر أو غير مباشر؛ فقد ألفتناها حاضرة في أشعار طرفة بن العبد، ولبيد بن ربيعة، وعنترة بن شداد، وعروة بن الورد، والسليك بن السلعة، والمزهد بن ضرار، وأبي خراش الهذلي، والحطّينة، والفرزدق، وأبي الشمقمق، وابن دانيال، والبوصيري، وابن نباتة المصري، واللائحة طويلة. فمع هؤلاء واضربهم، تحول الجوع/ الفقر إلى موضوع شعريّة (Thème poétique)؛ أي إنه تمت شعرة (Poétisation)

ذلك، يؤازرهم في إبراز هذا الموضوع كتاب المقامات والرسائل، ومبدعو الفنون الأخرى؛ الأمر الذي يسوّغ الحديث عن شكل تعبيري قائم، يُطلق عليه بعضهم "أدب الجوع"، على غرار أشكال أدبية أخرى، صرنا نسمع بها في الأونة الأخيرة؛ من قبيل: أدب الوباء، وأدب الصحراء، وأدب المناخ، وأدب الواحة. ويُعدّ الحديث عن الجوع/ الفقر موضوعا قديما في البنيات الثقافية الأخرى؛ كما لدى فرجيل (Virgile)، وأوفيد (Ovide)، ودانتي (Dante). إن هذا الموضوع يدل، بما لا يدع مجالا للشك، على أن الشعر العربي ظل مرتبطا بواقعه منذ أقدم عصوره، مصورا شتى أوضاعه وظواهره؛ من انكسارات وأفات وانتصارات وغيرها، ومعبرا عنها تعبيرا لم يخل من شعرية طائفة، بخلاف من يُصر على رمي ذلك الأدب الواقعي/ التسجيلي بضعف قيمته الفنية والجمالية.

في انسراب «رمل الماية»...

المقبرة إلا أنت...!



عبد الرحيم التوراني

خلف متاهات الغائبين
أجر خلاء هائلاً يشكو من كيد التلال ومن جفاء السراب
من زحمة الفراغ
ومني...

الآخرين
يأتون تبعاً
كل واحد يحمل تنهيدته الأثيرة بين رثيته
إلا أنا
الميت الكئوم
أتنفس من ثقب مضمضة
ألهث من تجاعيد دانية تتوارى خلف شلال ماء «يخرج
من بين الصلب والترائب»

أخاف أن أختنق بخطوط عتمة تثبت في سهو أصابع يدي

ألم بين جوانحي شهقة قلب مكتظة بأضرحة منسية
ترقب كرائحة أغمضتها أصوات غير مكتملة
أحلق في وجهي
ألمس بقية حلم مترمد
ترار أنفاسي
ناتئة تترنح
مما سيأتي وأتى وحصل

أنهض
متمايلاً من الخفة
لاهيلاً
أبني جنة موعودة
أرتجل لون سماء
مرصعة بنجوم الظهيرة
وأصعد
أصعد
أصعد
صوب شمس مرسومة بأشعة منشورة
ملونة بلوعة الشجن...

ساعتها يغني الفناء ألعانه المهربة
في انسراب «رمل الماية»
يفاجئ الراقين فوق صهوته
يلقنهم صهيل القيامة
والتسلي بأحرف اللغة القاتلة.

أقول عن نفسي:
أنا لا أحد
مغطى بقبعة من قلق وذكريات غائمة منسوجة بأرق
بنصال لامعة من مطافات موشاة بزفير...

أسمع غيمة ندية تنشد ترنيمة:
"المقبرة إلا أنت..."
فمتى ستأتي لتنام...؟
الدنيا برد
الهواء مبتل بدم قديم

في الغياب الطاعن يتقوس جسد الشقي.
يتهدج عابساً يئن تحت معطف رملي قديم.
عامر بالسعال والضجر ويتنهيدات المغدورين

نجيب صامت بدمي. وبخطوتي جنازة غامضة
لميت كنوم

يتهيأ لي أن أقتفي أثر علامته الأخيرة
مهمي عارياً طافياً
فوق أكوام السراب بين متسع المدافن

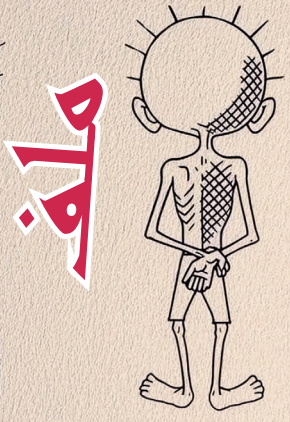


والجند يبيدون صنائع الذكريات
ومبتكري قواميس الحنين...!

أحشو في بنظرة قتيل
مدثراً بصخب لهاث
لا يشبهني
أعرفني
ولا أدركني
أمشي

نازلاً بالعدم وبنفايات الجحيم

يقودني تعبي إلى قبر غريب
يشيع عني إني آخر...
من غبار ملذات الندم. من حطام الساعات المحرمة. من
ياس عريض.
من أبتسامات مضللة باعها بهلوان حزين لتفرجين
كجولين
كلما ضحكوا انكسر لسانه وتعتعت مشيته أكثر...
يبكيهم بألم طافح.. يسميهم «سكاري مجانيين»!



-هل سيعود أبي يا أمي.
ابتسمت وقالت.
-نعم سيعود، وسيحمل
معه كما أخبرتك الأكل.
ساد الصمت، نظرت
الأم إلى الحشود، كانت
تتحرك شمالاً، هل كانت
شاحنات أخرى قادمة،
وهرعوا لاستقبالها، شكت
في الأمر، لكنها تشبّثت
بالأمل. بعد وقت غير قصير
أصبحت وحدها هي وابنها
قبالة البحر، وشوارع مدينة
هدمت على جنباتها كل
المنشآت، وأصبحت مجرد
ركام من الإسمنت المسلح.
تساءلت هل حقاً سيعود
زوجها محملاً ببعض
المؤونة، أم أنه لم يتمكن من الحصول على نصيبه من
المساعدات ليقلل راجعاً بخفي حزين.

فجأة نطق صوت بين تلافيف دماغها:

وإذا لم يعد؟ وإذا باعته مسيرة وأردته قتيلاً. شعرت
بقشعريرة تسري في جسدها، وحاولت جاهدة طرد تلك
الأفكار السلبية التي هجمت على ذهنها وقلبيها.

كانت تعلم أن ما فكرت فيه محتمل جداً، بدليل أن كثيرين
ماتوا من قبل، بعد اتفاق حماس مع نتنياهو على إطلاق بعض
الأسرى، وإدخال المساعدات. لم يلتزم الجيش الإسرائيلي
بالاتفاق، ولينتقم من الفلسطينيين، جعل من المساعدات طعاماً
ليقتلهم. عرفت نساء كثيرات فقدان أزواجهن وأبناءهن، قصفتهم

المسيرات وهم يحاولون الوصول إلى
الصدقة التي جادت بها عليهم دول
العالم، دول خائفة وعاجزة أمام
جبروت اللوبي الإسرائيلي العالمي.

-أمي.. أمي.
أعادها صوت ابنها إلى مسرح
الواقع، وقبل أن تسأله ما به. قال

وهو يشير بيده:
-انظري هناك، أبي عائد يحمل

كيساً على كاهله.

نظرت حيث أشار ابنها،
خفق قلبها من السعادة وهي
تري زوجها عاد سالماً غانماً،

يحمل كيساً وفي يده كيس آخر
صغير. أخيراً سيحصلون على
لقمة ويطردون الجوع الذي

سكن المدة والأمعاء منذ أسابيع
طويلة. رفعت أكفها إلى السماء
شكراً وحداً الله. كانت خطوات

زوجها تقترب بثبات، شعرت به
يبتسم من بعيد، فرحاً بعودته
إلى زوجته وابنه بالمؤونة. لم

يكن لديهم بيت فكل بيوت غزة
هدمت عن آخرها. لكنهم سيعودون
إلى أطلال بيتهم، هناك مقلاة

حديدية قديمة. سيجمعون
الحطب، وستعجن خبزاً، ليأكلوا
حتى الشبع، وسيقدمون بعض ما

طبخوا لجيران الخراب، فاليوم
كما يقول المثل علي وغدا عليك.
ومساعدة الفلسطينيين لبعضهم

وإيمانهم بقضيتهم هو ما يمنحهم
القدرة على البقاء.

لم يكتب لسعادة المرأة أن
تكتمل، فقبل أن يصل زوجها
إليها، وعلى مسافة خمسمائة متر

أو ينيف، رأت مسيرة تنسل بغثة
من رحم السماء. توقفت فوق رأس
زوجها، أطلقت عليه قذيفة، أردته

قتيلاً، وتمزق الكيس، وامتزج
الطحين بالتراب. راح زوجها أمام
عينها وعيني ولدها، وراح كيس

ظننت أن طحينه سينهي جوعهم
لبضعة أيام..

البشري، كان البحر يمتد في سكون غير أبه بما يقع بجواره،
مثله مثل حكومات العالم الغير معنية بمأساة شعب يباد
بآخر ما ابتكرته تكنولوجيا التسليح الأمريكية والأوربية. في
أعماقه ما يكفي لإطعام هؤلاء البؤساء ويزيد، لكن رزقه محرم
على الفلسطينيين، أغرق ودمر القصف الإسرائيلي المراكب
والزوارق، ولم يعد البحارة قادرين على المجازفة بإصلاحها
مخافة أن يغتالوا قبل إصلاحها. كل شيء في غزة أصبح
هدفاً لنيران العدو أو فخاً للقتل. حرب التجويع ديدن
إسرائيل الذي تنهجه بسادية غريبة، هدفها إفناء شعب
و إرغام من بقي حياً على الرحيل. هذه كانت فتوى دونالد
ترامب، لتتكرر مأساة الهنود الحمر من جديد.
انتبهت الأم على صوت ابنها وهو يقول:



عزيز أمي

كانت حاملاً في شهرها السادس. البطن
المنتفخ أكثر مما يجب في مثل هذا الشهر من
الحمل حال بينها وبين الإسراع في المشي.
تمسك يد ابنها الذي لم يتجاوز عقده الأول،
تحته على السير وتتشبث باليد الصغيرة كي
لا تسقط أرضاً. كانت الحشود أمامهم تتدافع كموج بحر
لجي للحصول على كيس طحين، أو علبة حليب، أو أي
شيء يخفف من الجوع الذي أصبح لا يحتمل، بعد شهور
وأسابيع من التجويع. خشي عليها زوجها أن تصاب بأذى
بين الحشد العرمم، نظر إليها بإشفاق، قال وهو يشير
بيده إلى تلة رملية:

-أذهبى إلى تلك الربوة الرملية بالقرب من الخراب أنت
والطفل. انتظريني هناك لن أتأخر عنكما.

أومأت المرأة برأسها موافقة دون أن تنبس ببنت
شفة. أخذت ابنها، نظرت إليه بإشفاق، ابتسم في
وجهها كي يجعلها تطمئن على أوبته. اتجهت نحو
التلة، بينما انطلق الزوج مهرولاً
ليلتحق بالجموع التي كانت
تملأ الشاطئ كأنها في يوم
حشر.

الشاحنات التي سمح لها
الكيان الصهيوني بالمرور، لم
تكن تتجاوز أصابع اليدين
الإثنين، أحاط بها الجياع من
مختلف الأعمار، مع حضور لافت
للنساء والصبايا، جئن على
أمل الحصول على المساعدة،
لأن الذكور من أهلهم استشهدوا
جميعاً، ولم يعد هناك من
ينوب عنهم في الحصول على
المساعدة الهزيلة التي وصلت
إلى القطاع.

جلست المرأة على التلة،
وضمت بيدها اليمنى ابنها
إليها، لعله يمنحها بعض الدفء
ويشعرها بالحنان والأمان. نظر
إليها بعينين جاحظتين وكبيرتين
أكثر مما يجب، في وجه ضامر
شبهته بتلك الكائنات الفضائية
التي شاهدتها في بعض
الأفلام، عندما كانت فتاة بافعة،
وحين كان يتوقف الجيش
الإسرائيلي عن غزو غزة لمهل
قلما كانت طويلة. ابتسم لها،
ردت الابتسامة، وقالت كأنها
تحدث نفسها:

-لا تقلق حبيبي سيعود
والدك بالطحين، وربما عاد
بالحليب وبعض علب السمك
أو اللحم المجفف. سنأكل حتى
ننسى الجوع الذي لا يكف عن
العواء في بطوننا.

لم يعقب الطفل، لقد ألف
وعود أمه بأنه سيأكل شيئاً ما
قريباً، لكن وعودها لم تتحقق.
ساد الصمت، لم يكن يقطعه
سوى صدى صياح أولئك الذين
كانوا يحاولون الحصول على
المساعدات.

في الجهة المقابلة للسيل

الخنزير

قصة قصيرة



من أعمال الرسام الفلسطيني يوسف كتلو



المصطفى كيتو

التي يقرأ من خلالها المجتمع محيطه» (9).
تقارب في سطور هذا المقال كيفية رصد المخرجة الفلسطينية سمر طاهر لولو لجوانب من الأوضاع المجاعية بقطاع غزة؛ في فيلمها الوثائقي القصير «عدس فلسطين» (10)، وهي التي تحاول إيصال صوتها إلى العالم بأسره، محاولين القبض على أهم لقطاته ومتوالياته السينمائية وإخضاعها للوصف، والتفسير، والتحليل، والتأويل. مستأنسين بالتقطيع الفني للفيلم، إذ يعد هذا الأخير مرحلة أساسية في وصفه وتحليله، وهو الذي يعبر بالصورة والصوت. فالناقد الباحث يحاول ترجمة هذا الكل بواسطة لغته الواسعة متسلحا بمفاهيم مقارنته. يقول جاك أومنت: «باختصار، وصف الفيلم، يعني مسبقا الدخول الواسع في التحليل» (11).

تري ماذا تقول الصور السينمائية في فيلمها هذا؟ وكيف تقول ما تقوله؟

1 - بطاقة فنية عن الفيلم

- إخراج: سمر طاهر لولو ومساعدتها حمدي خليل الحسيني.
- تصوير: رشاد خليل الحسيني.

- مونتاج: نور طاهر لولو.

- شخصية الفيلم وبطله: الطباخ خليل النجار.

- المدة الزمنية: ثمان دقائق وخمسة عشر ثانية.

- نوع الفيلم: فيلم وثائقي قصير.

2 - ملخص قصة الفيلم

يحكي الفيلم الوثائقي القصير حكاية طباخ فلسطيني جعل من ولعه بالطبخ منذ أن كان طفلا أداة مقاومة في وجه المجاعة التي تخلفها الإبادة والآلة الهمجية الصهيونية في قطاع غزة. ذلك أنه شيد مطبخا مجتمعيا يسعى من خلاله لتقديم وجبات غذائية كثيرة ومتنوعة للجوعى، راجيا الحفاظ على بصيص الأمل والتكافل في مجتمعه الغزوي في هذه اللحظات العصيبة.

3 - سيمياء العنوان

يستوقفنا العنوان «عدس فلسطين» باعتباره علامة لسانية بصرية تشكيلة تقربنا من المتن المدروس، وعتبة (12) سيميائية نعبر من خلالها إلى داخله، يتشكل من لفظة «عدس» وهي دال على نوع من القطاني، الذي يستهلك بكثرة في حال الأزمات المادية لدى الأشخاص والأسر المعوزة، غني بالعناصر الغذائية الأساسية؛ الكربوهيدرات، الألياف، البروتين والفيتامينات والمعادن منها الحديد والمغنيز والفسفور والبوتاسيوم والكالسيوم والزنك، بالإضافة إلى أنه مضاد للأكسدة، أضيفت إلى لفظة «فلسطين» اسم علم مكان دال على الرقعة الجغرافية لبلد عربي إسلامي قسّمه الاحتلال الإسرائيلي إلى الضفة الغربية وقطاع غزة، واستولى على مساحات شاسعة منه، هي منطقة جغرافية (13) واقعة جنوب شرق البحر الأبيض المتوسط حتى وادي الأردن تقع في غرب آسيا، وتصل بشمال القارة الإفريقية عند شبه جزيرة سيناء؛ تركيب إضافي معنوي كنائي مجازي خرج عن المألوف للدلالة أن ثمة أمرا يحدث، ترى ما علاقة العدس بفلسطين المحتلة؟

يتبين أن العنوان تكتيف واختزال لمعاناة الشعب الفلسطيني الذي صارت المجاعة تفتك به يوما بعد يوم.

4 - تجليات «المجاعة» في الفيلم من منظور سيميائي

- الافتتاحية: تفتتح المخرجة فيلمها بإطارين دالين، يؤشران على موضوع التسلط الإسرائيلي والمجاعة في صفوف الضحايا من الفلسطينيين:

- لقطة أولى متوسطة حوارية خطابية ثلاثية عسكريين إسرائيليين على خط مائة وثمانين درجة من الكاميرا، يتوسطهم وزير الدفاع الإسرائيلي يوآف غالانت؛ يصرح بالعلامات اللسانية التالية:

«نفرض حصارا كاملا على قطاع غزة»، «لا كهرباء!»، «لا طعام!»، «ولا ماء!»، «ولا غاز!»، «كل شيء مغلق.. نحن نقاتل حيوانات»، «ونتصرف

تقديم

تفاقت الأوضاع المعيشية وتعسرت - في الآونة الأخيرة - بقطاع غزة الفلسطينية بمنطقة الشرق الأوسط، وصارت من سيء إلى أسوأ نتيجة المجاعة (3) الناتجة عن الجوع الشديد طويل الأمد، الذي أصاب نسبة كبيرة من السكان في هذه المنطقة أمام مرأى ومسمع العالم بأسره، مما تسبب في العديد من الوفيات لارتفاع معدلات سوء التغذية الحاد بين الأفراد.

الفاعل - هنا - لا يرجع إلى الكوارث الطبيعية، مثل الفيضانات والأعاصير والجفاف والبرد غير الموسمي وتفشي الحشرات وأمراض النباتات وغيرها؛ وإنما يعود إلى سبب بشري بفعل الحرب والاعتداءات الجائرة التي يقوم بها المحتل الإسرائيلي؛ الذي يقتل ويحاصر ويهدم المباني ويبتلع المحاصيل ويقطع الطرق ويعطل خطوط الإمداد ويمنع وصول الطعام وتوزيعه دون رحمة إنسانية أو شفقة، متجاوزا

الخطوط والعهود والمواثيق الدولية.

اهتمت السيميائيات؛ و«هي المجال الذي يهتم بكل شيء يمكن اعتباره علامة» (4)، بالسيميائية باعتبارها تدخل ضمن محتوى الخطاب السمعي - البصري، بالإضافة إلى توفرها على خصائص تنفرد بها عن باقي الأشكال التعبيرية الأخرى. فتحليل الفيلم السينمائي يختلف من ناقد لآخر مع اختلاف الهدف.

يمكننا اعتبار المدخل السيميائي الأكثر ملاءمة لمقاربة الفيلم باعتباره مجموعة هائلة من العلامات. يرى جاك أومنت (Jacques Aumont) وصديقه ميشال ماري (Michel Marie) أن الفيلم نص، وأن مقاربة التحليل النصي (analyse textuelle) هي الملائمة لطبيعته؛ و«هي التي تركز على مفهوم النص الذي يحدد أساس الفيلم في تحليله» (5).

بالإضافة إلى ما قدمه أومبرتو إيكو ورولان بارت. يقول جاك أومنت نقلا عن إيكو: «كل الظواهر الاتصالية والتعبيرية تمثل أنظمة دلالية، التي يمكن دراستها وربط كل رسالة فردية بالشفرات العامة التي تنظم الإرسال والاستقبال» (6).

نستنتج أن لكل جنس أدبي أو فني كتابته ذات تقنيات تخصه لوحده، وأن كتابة الفيلم السينمائي هو الآخر يتمتع بتقنياته وفنياته الخاصة تجعل منه نصا فيلميا تعبيرا قابلا للتحليل السيميائي، إذ جعله الباحثان الفرنسيان الأكاديميان أومنت وماري يتكون من ثلاثة مفاهيم أساسية، وهي (7):

1- النص الفيلمي كوحدة وخطاب وكنانية عاطفية.

2- النظام النصي بحيث كل فيلم له بنيته الخاصة عند عرضه.

3- الشفرات وهي بمثابة أنظمة عدة تعمل خارج الفيلم كنص.

يتم إذن، تناول الفيلم السينمائي بوصفه نصا ووحدة (Un tout)، يتلقى الدراسة لكتابته السينمائية (الميزانسين) ولخطابه الفيلمي (نسقه، تكويناته، شفراته، وظائفه..). بصريا ولغويا وإيقاعيا، محاولة لتفسير المعنى المنتج والمقصود، يقول كريستيان مبيتز في هذا الصدد: «عندما نتكلم عن النص الفيلمي فإننا نتكلم عن الفيلم كخطاب دال بتحليل نظامه الداخلي ودراسة كل مظاهره الداخلية التي نستطيع ملاحظتها» (8).

ينضاف إلى ما افترضناه ما أتى به رولان بارت: مستوى الملاحظة والوصف (التقريبي) الذي لا ترغب السيميائيات في التوقف عنده، بل تتعداه إلى الثاني وهو: مستوى التحليل والتفسير (الإيحائي)، فالأول يتعلق بالجواب عن سؤال:

ماذا تقول الصورة السينمائية؟

والثاني بالجواب عن سؤال:

كيف تقول الصورة السينمائية

ما تقوله؟ «إن التمثيل البصري

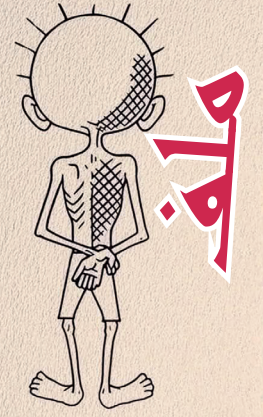
في كل أشكاله يتضمن واجهتين

بالضرورة: واجهة تقريرية،

هي ما يشير إلى الظاهر ذاته

(الشيء الممثل)، وأخرى

إيحائية تحيل على الطريقة



شيء من سيمياء المجاعة في الأفلام الوثائقية القصيرة



«عدس فلسطين» 1 للمخرجة الفلسطينية سمر طاهر لولو مثالا

خاتمة

يمكننا القول باعتباري متلقيا ناقدا، ومشاهدا للفيلم مرات ومرات: إن المخرجة أزالَت اللثام عن جوانب عديدة من معاناة الشعب الفلسطيني بقطاع غزة، لاسيما معاناته مع فعل الجوع الذي تحول إلى كارثة مجاعية لا ترحم. يبدو الفعل السينمائي السمعي-البصري قد أسعفها في التعبير بالضوء دون مغالاة تذكر، مقدمة شهادات حية من عين المكان، موثقة للتاريخ الإنساني أفعال الاحتلال الإسرائيلي للأرض الفلسطينية ومدى وحشيته؛ دون رحمة، ضاربا عرض الحائط بحقوق الإنسان صغيرا وكبيرا والمواثيق الدولية، وحتى حقوق التراب والحجر والحيوان والنبات، محاولا اقتلاع الكل من جذوره دون فلاح.

بيلوغرافيا:

- بنكراد سعيد، «بعض من بارث(رولان في ذكرى ميلاده المائة)»، مجلة علامات، ع44، 2015م.
- زراري عواطف، «الصورة وتجلياتها في بنية الخطاب الفيلمي، تحليل سيميولوجي للفيلم التونسي «صمت القصور» للمخرجة مفيدة التلاتلي»، مجلة فتوحات، ع4، يناير 2017م.
- كيروم حمادي، الاقتباس من المحكي الروائي إلى المحكي الفيلمي، المؤسسة العامة للسينما، سوريا، 2005م.
- مساعدي سلمى، «رمزية الخطاب السينمائي من خلال الصورة، قراءة في عينة من الأفلام السينمائية»، مجلة الرواق للدراسات الاجتماعية والإنسانية، المجلد الخامس، ع1، يونيو 2019، جامعة العربي بن مهيدي أم البواقي، الجزائر.
- ناصر عبد الجبار، ثقافة الصورة في وسائل الإعلان، الدار المصرية اللبنانية، ط1، القاهرة، 2011م.

Aumont Jacques, Marie Michel, l'analyse des films, collection - Nathan cinéma, 1ere Edition, 1998.
Deleuze Gille, l'image-mouvement, cinéma1, Ed. Minuit, 1983 -
28/2/https://www.aljazeera.net/encyclopedia/2024

خلفتها الحروب. -
https://ar.wikipedia.org/wiki/فلسطين.

هوامش:

- 1 - رابط الفيلم: <https://www.youtube.com/watch?v=LlwLYajwgF0>
- 2 - الأكاديمية الجهوية للتربية والتكوين، جهة الدار البيضاء-سطات، المملكة المغربية.
- 3-28/2/https://www.aljazeera.net/encyclopedia/2024 أبرز المجاعات التي خلقتها الحروب، زرتة بتاريخ: 2025/8/1.
- 4- عبد الجبار ناصر، ثقافة الصورة في وسائل الإعلان، الدار المصرية اللبنانية، ط1، القاهرة، 2011م، ص86، نقلا عن: Theory of Semiotics, p.07, Eco Umberto, A-Jacques Aumont, Michel Marie, L'analyse des films, collection 5-Nathan cinéma, 1ere Edition, 1998, p.66.
- 6-Ibid, p.68.
- 7-عواطف زراري، «الصورة وتجلياتها في بنية الخطاب الفيلمي، تحليل سيميولوجي للفيلم التونسي(صمت القصور)»، للمخرجة مفيدة التلاتلي»، مجلة فتوحات، ع4، يناير 2017م، صص103-104(بتصرف).
- 8-Jacques Aumont, Michel Marie, l'analyse des films, p.70.
- 9-سعيد بنكراد، «بعض من بارث(رولان في ذكرى ميلاده المائة)»، مجلة علامات، ع44، 2015م، ص19، نقلا عن: Roland Barthes, L'obvie et L'obtus, p.11.
- 10 - الفائز بالمركز الثاني في مسابقة الجزيرة الوثائقية 2025 للفيلم القصير. Jacques Aumont, Michel Marie, L'analyse des films, p.70.
- 12 - نسخة إلى جيران جنيت (عتبات النص).
- 13-https://ar.wikipedia.org/wiki/فلسطين، زرتة بتاريخ 2025/08/02.
- 14 - حمادي كيروم، الاقتباس من المحكي الروائي إلى المحكي الفيلمي، المؤسسة العامة للسينما، سوريا، 2005م، ص301.
- Gille Deleuze, L'image-Mouvement, cinéma1, Ed.Minuit, 1983, 15-p.129.
- 16 - سلمى مساعدي، «رمزية الخطاب السينمائي من خلال الصورة، قراءة في عينة من الأفلام السينمائية»، ص31.

وفقا لذلك».

من خلال هذه العلامات اللسانية يتبين لنا التوجه المعادي الوحشي اللا-إنساني من الجانب المحتل الإسرائيلي تجاه العزل الفلسطيني أهل الأرض والحق، فمنع هذه النعم عنهم يعني تعذيبهم بحرمانهم من العيش الكريم على أرضهم، وبالتالي تجويعهم وتخويفهم وقهرهم وتجريدتهم من إنسانيتهم؛ دفعا بهم نحو الموت البطيء. ب-لقطة متوسطة، صورة - حركة، ثانية لغزاويين يحملون أواني فارغة بحثا عن الطعام وكلها محمولة من الخارج. تبدو علامة أيقونية لواقع معيش في قطاع غزة، فالجوع اليومي نال منهم ودفع بهم صغارا وكبارا، حفاة وعراة بحثا عن لقمة طعام يسدون بها رمقهم. مدتها واحد وعشرون ثانية.

1-4 بداية الفيلم

استهلّت المخرجة فيلمها بأربع لقطات تبدو أساسية؛ في الأولى المتوسطة، صورة - حركة لطفل وخلفه في عمق الحقل تجمعات بشرية، عائد نحو عين الكاميرا، حافي القدمين يحمل سطلا بلاستيكا مملوءا بالماء. في الثانية طوابير من الصغار والكبار الجوعى ينتظرون الحصول على وجبة من الطعام، وفي الثالثة المقربة دخان ودمار يملأ الشاشة، علامة مؤشر أن ثمة كارثة ما حلت بالمكان، إنها الحرب الإسرائيلية على غزة التي دخلت في عامها الثاني متجاوزة العام والنصف. وفي اللقطة الرابعة يدخل الكادر أولا صوت الطباخ بطل الفيلم من خلال العلامات اللسانية التي يقدمها فهي تسبق العلامات البصرية، تؤثر على أحداث وقعت، تركت وما زالت تترك آثارها في نفوس كل الفلسطينيين، والبطل شاهد على مجرياتها. وبموازاة المحكي تطفو على الشاشة لقطة مختزلة بها أطفال فلسطينيون يحملون أواني فارغة ينتظرون وجبات؛ وقد حصل أحدهم على وجبة أرز مطبوخ.

يبدو تكرار مؤشر الأواني بوصفه علامات تشكيلية وعائية لحمل الطعام دالا بصريا على تفاقم الوضع من سيء إلى أسوأ، فالجوع يستشري في البطون والأوضاع المعيشية تزداد تدهورا، مما يمنح المتلقي - بدوره - سيروية من المعاناة. مدته حوالي واحدا وثلاثين ثانية.

2-4 وسط الفيلم

تستهلّه المخرجة بلقطة ظهور العنوان، ثم لقطة ظهور البطل وهو يدير بوجهه إلى يسار الإطار، رجل فلسطيني عربي أصيل شاب شعره، هادئ، تجاوز عمره الستين عاما، ثابت، رافض البصر إلى عين الكاميرا، يملأ مركز اهتمام الإطار، متواضع، قنوع، واثق من نفسه وقوله، يسترسل في حكيه عن تجربته مع طبخ الطعام وكذلك تحوله من إعداد وجبات الحفلات والمناسبات إلى الدخول في مشروع مجتمعي خيري لفائدة الشعب الفلسطيني بقطاع غزة رفقة فريقه من الشباب المتطوعين، رافض كل مقابل مادي، مقاوم للمجاعة التي تهك بل تفتك بهم جميعا. «فالشخصية في المحكي الفيلمي كائن أيقوني يتمظهر كعلامة دالة مكونة من الصورة والصوت»(14).

يبدو البطل في هذه اللقطة المقربة صدر، صورة-عاطفة(15)، وجه يحس، والتي تملأ الإطار أي: قابعة في مركز اهتمامه لا تترك فرصة للمتلقى المشاهد؛ أن يدير بصره حتى يلتقط سيمياء خطابها وملامح وجوها، إذ ذاك يمكنه أن يجذب إلى قولها وحركاتها فيتأثر ويدخل في اتصال غير مباشر معها، ليصير البطل علامة أيقونية رمزية في ذاكرة كل فلسطيني، من خلال ما قدمه من عمل خيري تطوعي صار فعلا مقاوما للمجاعة في فترة من فترات تاريخ الصراع الفلسطيني-الإسرائيلي. «فالفيلم السينمائي لا يستند معانيه مما يراه المتلقي فحسب، بل يتعداه إلى ما لا يمكن أن يراه من إحياءات وإيماءات، باعتبار السينما تعتمد بصفة أكبر في بنائها للفيلم على المعاني الضمنية التي يمكن أن تكشف عن واقع المجتمع الثقافي والاجتماعي، كما أن السينما لا تعمل بمعزل عن مختلف الظواهر الموجودة في المجتمع وبالتالي فإن ما تقدمه لا يخرج عن الإطار الاجتماعي السياسي وحتى الاقتصادي للمجتمع»(16).

يرافق حكيه الذي دام حوالي سبع دقائق مجموعة من اللقطات السينمائية الوثائقية المعبرة عن الحال المزرية، إذ الإطارات غاصة بسيمياء المعاناة؛ سيمياء اللباس، سيمياء الجدران المتفحمة، سيمياء الأواني المحمومة، سيمياء العربة التي تجرها الحمار لنقل الوجبات، سيمياء الأجساد النحيلة، سيمياء الوجوه الشاحبة... (أنظر الفيلم).

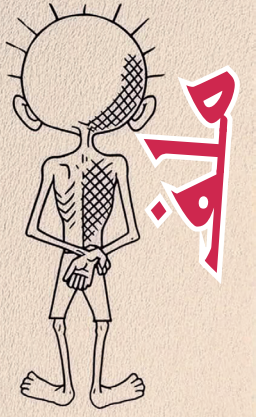
3-4نهاية الفيلم

تختّم المخرجة الفلسطينية الشابة فيلمها بلقطة معبرة، يملأ إطارها لهيب النار ذو الخلفية السوداء، تليها لقطة أخرى تملأ الشاشة، إحصائيات، علامات لسانية بيانية تؤكد حجم الخسائر، فسيمياء نار المعاناة لا تزال تغلي في الصدور ولا تجد ما تطبخ، كما يبدو في



د. عبد الكريم الرحيوي

الجوع والجوعى في التراث العربي القديم



الجوع والجوعى: الحال والحال

حين نطالع سورة يوسف في القرآن الكريم، يستوقفنا أثر الجفاف والسنين العجاف على أحوال الناس ومعيشهم، فيحل الجوع بمنجله متأهباً لحصد الأرواح. فيهب الناس إلى البحث عن مصادر العيش، والهجرة في سبيل تحصيلها. بل في سورتي الإسراء والأنعام يصل الحال بالناس إلى قتل أولادهم خشية الفاقة والجوع، والفقر والعيلة. فيصدق عدل الحق سبحانه وتعالى بتجريم ذلك والنهي عنه، فيقول عز وجل: «وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ، نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ، إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْئًا كَبِيرًا» (1)، ويقول: «وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ، نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ» (2).

وفي مدونة الشعر العربي القديم يستوقفنا الشاعر الحطينة بصورة موهلة في المعاناة، إذ الجوع يعضه ويلسع أبناءه، وقد عصي بطنه بحجر وطرق خباء خيمته ضيف، فكان في حال لا يحسد عليه: مطرقة العدم والحاجة، وستدان الخوف من المعرة والبخل.

ولأن الإبداع يتخلق أحياناً في رحم المعاناة؛ فقد تفتت مخيلة الشاعر عن إبداع صورة موجعة، عكست لنا هذا الوضع المازوم الذي وجد الشاعر نفسه داخله، ثم أودع تلك الصورة في ميميته المشهورة التي قص فيها قصته تلك. فانشد (3):

وَطَاوِي ثَلَاثَ عَاصِبِ الْبَطْنِ مُرْمِلٍ
أَخِي جُوعَةٌ فِيهِ مِنَ الْإِنْسِ وَخَشَةٍ
وَأَفْرَدَ فِي شَعْبٍ عَجُوزًا إِرَاءَهَا
خُفَاةَ عَرَاةٍ مَا أَغْنَدُوا خَبَرَ مَلَةٍ
رَأَى شَيْخًا وَسَطَ الظَّلَامِ فَرَاغَهُ
وَقَالَ ابْنُهُ لَمَّا رَأَاهُ بِخَيْرَةٍ
وَلَا تَعْتَذِرْ يَا لِعَدَمِ عِلِّ الَّذِي طَرَا
فَرَوَى قَلِيلًا نَمَّ أَجْجَمَ بَرَهَةٍ
فَبَيْنَا هُمَا عَنَتَ عَلَى الْبُعْدِ عَانَةً
عِطَاشًا تَرِيدُ الْمَاءَ فَانْسَابَ نَحْوَهَا
فَأَمَلَهَا حَتَّى تَرَوْتَ عِطَاشَهَا
فَخَرَّتْ نَحْوُصَ، ذَاتَ جَحْشٍ، سَمِينَةٍ
فِيَا بَشْرَهُ إِذْ جَرَّهَا نَحْوَ قَوْمِهِ
فَبَاتُوا كِرَامًا قَدْ قَضُوا حَقَّ ضَيْفِهِمْ
وَبَاتَ آبُوهُمْ مِنْ بَشَاشَتِهِ أَبَا

فلولا القنص الذي تيسرت أسبابه، فمحا به الشاعر عاراً كان سيلاحقه على المدى، لكان ابنه مائدة لقرى الضيف ودفع المسغبة! إذ الجوع أعمى ولا سلطان عليه أحياناً! أجارني الله من بأسه وجوره، وأعاذنا من أسبابه ومسبباته.

فهذا، إذا، حال الجوع، وهذا مال الجوعى في مواجهته، وهي مواجهة خاسرة ومكلفة دون شك. «فمع الجوع يعز الغذاء ويندر القوة، وتشيع الفاقة وينتشر العوز، فتَهْزِلُ الأجساد وتنحجُ الجسوم، ثم تتسرب الأمراض وتنفذ العلل؛ إذ يصبح المأكَل أي شيء مُتَاح، صلح أم لم يصلح، حل أم حرام» (4).

الجوع والجوعى: ورطة الإنسان وصنيع يده

لا خلاف أن يد الإنسان ليست بريئة دائماً فيما يحل على البشرية من أزمات، وما يحيق بها من شدائد ومحن! فمن الحروب والصدامات، إلى الكوارث والأفات، لا تسلم أيادي البشر من جريرة الاتهام، ولا تبرأ من شبهة الاقتتاف. فالحروب والنزاعات من فعال البشر وعمل أيديهم، وهي من مسببات المجاعات والأوبئة والموت الأسود والأخضر والأزرق وكل ألوانه المقيتة... وبخاصة الحرب بالمحاصرة والحجر، وإغلاق منافذ الإعانة والغوث.

فمما يرويه الأمير شكيب أرسلان عن المقرئ ما أحدثه حصار مالقة الذي ضربه فرديناند عليها، فيقول: «وضيقوا عليهم بالحصار إلى أن فني ما عندهم من الطعام، فأكَلوا الخيل والمواشي والحمير، وأثر فيهم الجوع» (5). ومن اقتتاف أيادي البشر المضاربة في الأسعار، وغلاء المعيشة على

تاريخ المجاعة في مصر

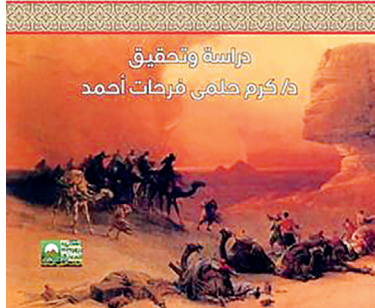
المعروف بكتاب

إغاثة الأمة بكشف الغمة

للمشيخ الإمام العلامة المؤرخ

تقي الدين أبي العباس أحمد بن علي المقرئ

المتوفي سنة ٨٤٥ هـ



د/كريم حلمي فرحات أحمد

دراسة وتحقيق

د/كريم حلمي فرحات أحمد

د/كريم حلمي فرحات أحمد

د/كريم حلمي فرحات أحمد

د/كريم حلمي فرحات أحمد

د/كريم حلمي فرحات أحمد

د/كريم حلمي فرحات أحمد

د/كريم حلمي فرحات أحمد

د/كريم حلمي فرحات أحمد

د/كريم حلمي فرحات أحمد

د/كريم حلمي فرحات أحمد

د/كريم حلمي فرحات أحمد

د/كريم حلمي فرحات أحمد

د/كريم حلمي فرحات أحمد

د/كريم حلمي فرحات أحمد

د/كريم حلمي فرحات أحمد

د/كريم حلمي فرحات أحمد

د/كريم حلمي فرحات أحمد

د/كريم حلمي فرحات أحمد

د/كريم حلمي فرحات أحمد

د/كريم حلمي فرحات أحمد

د/كريم حلمي فرحات أحمد

د/كريم حلمي فرحات أحمد

د/كريم حلمي فرحات أحمد

د/كريم حلمي فرحات أحمد

د/كريم حلمي فرحات أحمد

د/كريم حلمي فرحات أحمد

د/كريم حلمي فرحات أحمد

د/كريم حلمي فرحات أحمد

د/كريم حلمي فرحات أحمد

د/كريم حلمي فرحات أحمد

د/كريم حلمي فرحات أحمد

د/كريم حلمي فرحات أحمد

د/كريم حلمي فرحات أحمد

د/كريم حلمي فرحات أحمد

د/كريم حلمي فرحات أحمد

د/كريم حلمي فرحات أحمد

د/كريم حلمي فرحات أحمد

د/كريم حلمي فرحات أحمد

د/كريم حلمي فرحات أحمد

د/كريم حلمي فرحات أحمد

د/كريم حلمي فرحات أحمد

د/كريم حلمي فرحات أحمد

د/كريم حلمي فرحات أحمد

د/كريم حلمي فرحات أحمد

د/كريم حلمي فرحات أحمد

د/كريم حلمي فرحات أحمد

د/كريم حلمي فرحات أحمد

د/كريم حلمي فرحات أحمد

د/كريم حلمي فرحات أحمد

د/كريم حلمي فرحات أحمد

د/كريم حلمي فرحات أحمد

الناس، وهذا دافع إلى الجوع والإملاق، وإلى الأمراض والأوبئة.

فقد خصص المقرئ (ت 845هـ) أزمة الغلاء التي ضربت مصر منذ القدم وإلى عصره (القرن التاسع الهجري) بتاريخ دقيق سلط فيه الضوء على أسبابه ودواعيه وسبل القضاء عليه؛ فجعل الغلاء باباً من أبواب المجاعات وحلول الأمراض والأوبئة على الأمم، وسبباً مباشراً في اختلال أوضاع الدول اقتصادياً واجتماعياً وإدارياً، فيكون -بذلك- انهيارها محتوماً، وزوالها -لا محالة- واقعاً (6).

وعليه، فإن الإنسان -حين يتحالف مع نوازع الشر التي تملبها أطماعه على نفسه الأمانة بالسوء- لا يلتفت إلى أثر صنيعه على معيش الناس، ولا يتحرك ضميره وقد قطع أرزاق الأقواء التي ضمنتها الرزاق للعباد... وفي ذلك موت للنزعات الإنسانية، وواد للقيم الاجتماعية والأخلاقية.

وقد أسهم الجوع والفقر في ظهور فئات مهمشة ارتزقت بطرق مختلفة، لم تكن في معظمها مقبولة اجتماعياً أو أخلاقياً. من ذلك ظهور فئة الصعاليك في المجتمعات العربية، والتي كسبت رزقها «بشريعة اليد» لا بالنواميس الوضعية للأمم، فاحترفت الإغارات والسرقات وقطع الطرق... وهي سلوكات ابتدعوها لسد حاجة الفقير وإزالة فقره وفاقتة، وإنقاذها من الجوع والازدياء والتهميش والإقصاء» (7). وهذه «الاستراتيجية/ الاشتراكية» هي التي أوعز إليها شاعرهم عروة بن الورد حين أنشد (8):

إني امرؤ عافي إنائي شركة وأنت امرؤ عافي إنائك واحد
أنهز أمني أن سممت، وأن ترى بوجهي شجوب الحق، والحق جاهد
أقسم جسمي في جُوسم كثيرة وأحسو قراح الماء، والماء بارد

وهذه الأبيات هي التي من أجلها قال عبد الملك بن مروان: «ما يسررتني أن أحداً من العرب ممن ولدني، لم يلدني، إلا عروة بن الورد، لقوله: [ثم أنشد الأبيات]» (9).

خاتمة

ومن كل ما سبق؛ نؤكد اكتواء الإنسان، على مر التاريخ وتعاقب الحضارات، بلظى الجوع وجمار المسغبة، وانفطار قلبه على عوز سبل الخلاص من ذلك وانسداد آفاقه، وهو ما دفعه إلى المحظور وسوغ له استباحة الممنوع.

كما نؤكد تورط أيدي الإنسانية، أحياناً، في هذا الجرم الذي لا يمت للأخلاق بشيء، ولا يتصل بالقيم في أي جانب؛ لأنه يفضي إلى قتل النفس التي حرم الله إلا بالحق.

هذا وإن المحن والأفات، والشدائد والمجاعات، لم تكن لتثني الذائقة العربية عن الإبداع والتوثيق، والتأليف والتاريخ، إذ حفظوا لنا في مدوناتهم التراثية ما أفادنا في تلقي أحوالهم، والإطلاع على ظروف معيشتهم، علناً نغيد منها ونتعظ، فلا ندغ من الجحر مرتين!

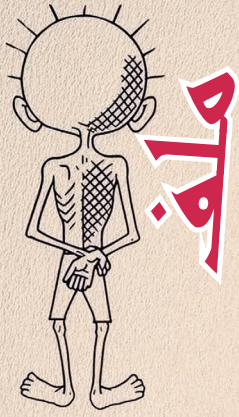
ونحسب أن عهدنا هذا معدود في زمن التحضر والتمدن، والاتصال والتواصل، والتلاقح والتفاعل؛ ولذلك وجب ألا ينتهي إلى علم البشرية - اليوم - أنه مازال فوق ظهر هذا الكوكب من يموت من الإنسانية جوعان أو ظمان، وإن حدث فتلك وصمة عار لا تسوغها تبريرات ولا تمحوها أعداء.

هوامش:

- (1)-سورة الإسراء: الآية: 31.
- (2) - سورة الأنعام: الآية: 151.
- (3) - ديوان الحطينة، برواية شرح ابن السكيت. دراسة وتبويب: د. مفيد محمد قمحية. دار الكتب العلمية. ط1: 1413هـ/1993م. بيروت- لبنان. ص: 178-179.
- (4)- أدب المحن. عبد الكريم الرحيوي. مجلة المورد، ع 1. مج 51. 1445هـ/2024م. بغداد- العراق. ص: 105.
- (5) - خلاصة تاريخ الأندلس. شكيب أرسلان. دار التقوى للطبع والنشر والتوزيع. 1440هـ/2018م. مصر. ص: 255.
- (6) - ينظر: إغاثة الأمة بكشف الغمة. المقرئ (تقي الدين أبو العباس أحمد بن علي). دراسة وتحقيق الدكتور كرم حلمي فرحات. دار عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية. الطبعة الأولى: 1427هـ/2007م.
- (7)- شعر المهملين في عصر ما قبل الإسلام. هاني نعمة حمزة. منشورات صفاف- بيروت/دار الفکر- البصرة. ط1: 1434هـ/2013م. ص: 173.
- (8)- ديوان عروة بن الورد (مشاركاً مع ديوان السموال في كتاب)، دار صادر. بيروت. ص: 29.
- (9)- المصدر نفسه.

الجوع وهو أجسه عند الرحالة أبي سالم العياشي

بقلم : محمد حماني



رفض الطعام الرفيع (الثريد الأعفر) في لحظة الجوع والطوى ينبئ عن قوة الصبر والتحمل، والزهد ومكارم الأخلاق عند المنصوفة، من أمثال أبي سالم العياشي.

2. الموت طعام !

رغم كل ذلك يصير طعام «الثريد» طعاما غير مُشْتَهَى، بالرغم من أن الرحالة المتصوف وضعه في مقام عال؛ فيصير بذلك «الموت» طعاما مُشْتَهَى.

ففاعل «أشهى» السوار بعد «الموت الأحمر» أدخل «الموت» في مجال «الطعام»، فأصبح طعاما مفضلا عند الرحالة؛ وأبو سالم رحالة متصوف، وللموت عند الصوفية دلالة خاصة: «فأولى خطوات تحقيق الموت المعنوي في نظر الصوفية، يتمثل في حرمان النفس من متعها الحسية، كالتفرد في الأكل» (6). ولعل ما هو قريب من ذلك ما نشاهده من صور الموت الأحمر الآتية من البقاع الغزية، حيث أصبحت مراكز توزيع المساعدات الغذائية ؟ هناك - مصادد للموت الحقيقي، إذ يموت الناس بالسلاح بعد استدراجهم وهم جوعى مكومون، ليتم اصطباذهم كالفرائس، فيكونون فريسة للموت. فيصير الموت طعاما مشتهى للخلاص من الوجود والإهانة.

يقول أبو سالم العياشي في رحلته ؟ وهو يسرد حال تآهيه للعودة :- «أضرم الجوع في سائر الأرجاء ناره» (7). يعكس هذا الأسلوب المجازي الاستعاري علو كعب أبي سالم العياشي في التعبير الأدبي، وهو استعارة جميلة من استعارات الجوع عند الرحالة، ولا غرو في ذلك، فهو أديب وشاعر؛ لكن الملفت هو أنه كيف عبر بالاستعارة لإيصال نسق ثقافي إلى القارئ، فاستعار فعل «أضرم» من عالم الإنسان وألحق بالجوع؛ لبيّن شدة الجوع الذي يهيم بقاع المنطقة، ويبقى الباحث على قليل من الطعام كالذي يريد تحصيل بيض الأنوق! فحضور الحديث عن الطعام يعكس انشغال ذهن الرحالة به؛ لأنه من الأمر التي يصعب الحصول عليها. فالاستعارة الطعمانية أصبحت طريقة ورمزا للتعبير عن شدة الأوضاع الاجتماعية التي يرصدها الرحالة وهو في طريقه إلى الحج، وهكذا يصير التعبير بلوغا يحتاج إلى تذوقه.

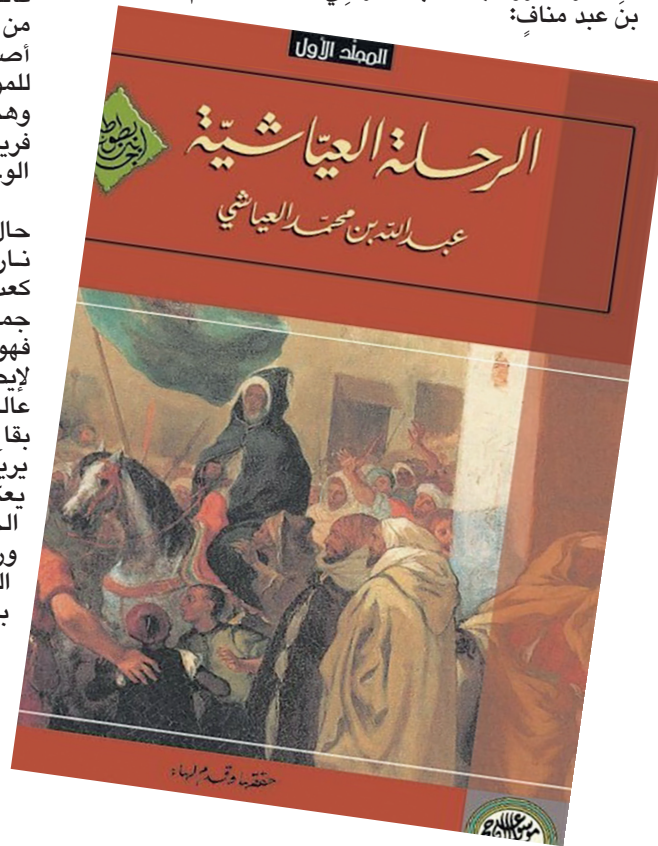
مما لا شك فيه أن الطعام يحضر بوصفه نسقا في الرحلة، يتولد عنه «الجوع» و«الشبع». وما حضوره (أي: الطعام) في الرحلة بصيغ تعبيرية معينة إلا انعكاس على ثقافة مجتمعية في مرحلة معينة من التاريخ، كما يعكس التخوف الحاصل من المجاعة التي يمكن أن تلحق بالقوم في لحظة معينة من الرحلة.

هوامش:

--1 نسب المحققان: د. سعيد الفاضلي، ود. سليمان القرشي الرحلة إلى صاحبها بعنوانها ب : «الرحلة العياشية»؛ غير أن العنوان الأصلي المتداول والمشهور هو «ماء الموائد»، وقد اعتمدته في قراءة هاجس الجوع؛ نظرا لانسجام هذا العنوان مع أفق هذه القراءة، كما أنه يتناسب مع المتن؛ لأن الماء والطعام لهما الحضور الكاسح في الرحلة؛ لذلك تستحق الرحلة أن تسمى ب : «ماء الموائد». ولقد رجّح الباحث المغربي د. خالد السقاط أن تكون تسمية الرحلة ب : «ماء الموائد» : «من وضع أحد أفراد أسرته في زمانه أو بعده، أو أحد أصدقائه أو تلامذته»؛ انظر: «ماء الموائد لأبي سالم العياشي (ت: 1090 هـ): الرحلة والرحالة مع تحقيق قسيمي مكة والقدس، د. خالد السقاط، منشورات المركز الأكاديمي للثقافة والدراسات المغاربية والشرق أوسطية والخليجية/ كلية الآداب والعلوم الإنسانية/ ظهر المهرز/ فاس، مطبعة آفوق - برانت 12 شارع القادسية - الليدو - فاس، ص: 82».

إلى ثقافة إطعام الطعام، وما تعكسه من الجود، والتي كانت تقام للمريدين بالزاوية العياشية (2) التي أسسها والد أبي سالم العياشي، حيث تربى فيها، وسار على دربه عندما آل أمر الزاوية إليه؛ يقول الباحث محمد حجي: «لما آل الزاوية العياشية إلى أبي سالم العياشي أخذ يشتغل فيها بتدريس العلم، وسار على نهج والده» (3).

منذ بداية الرحلة، وفي أثناء استهلالها، يقول أبو سالم العياشي متشبهًا الموت في سبيل الوصول إلى مقام النبي (صلى الله عليه وسلم)، وزيارة مقامه العالي؛ قائلا: «الموت الأحمر دون مرماه أشهى من الثريد الأعفر» (4). إن اشتهاؤ الموت في الطريق أفضل من اشتهاؤ طعام الثريد. يعكس كلام أبي سالم ثقافة المغاربة في ركوب البحار، وامتناع الفقار لزيارة طيبة، ولولعهم بالحج وزيارة مرقد النبي (صلى الله عليه وسلم)، كما يعكس ذكره للثريد الأكل الذي يفضلته المغاربة، ومشهور لدى المغاربة أنه إذا أراد شخص إكرام الضيف وتقديم القرى الذي يناسب مقامه؛ صنع له «الثريد»، وهو: «طعام من الخبز المفتوت المغمور بالمرق» (5). يقول الشاعر مطرود بن كعب الخزاعي، مادحا هاشم بن عبد مناف:



بظل هاجس الجوع من الهواجس والأفكار التي تختلج مخيلة الإنسان، وتزداد هواجسه كلما أحس الإنسان بالأخطار والكوارث المهددة به؛ فالبحث عن الطعام وتخزينه نابع من خوف الإنسان من الجوع. كما أن الجوع لا يقل هاجسا عن هاجس العطش؛ فهما هاجسان متواشجان. وكلما ابتعد الإنسان عن أماكن وجود الزاد والطعام؛ تضاعف خوفه، واضطرب أمنه ووقف، وتحرك هاجس الإحساس بالنهاية. فثنائية «الجوع» و«العطش»، وثنائية «الأمن» و«الخوف» ثنائيتان حاضرتان في أثناء اشتعال نار الحروب، وحصار القوي للضعيف، والكوارث الطبيعية. وهذا ينطبق أيضا على الرحالة والمسافرين إلى أماكن بعيدة لتحقيق مآرب معينة.

إن هاجس الجوع يمكن أن تتولد عنه هواجس أخرى، كهاجس الخوف، وعدم الإحساس بالسكينة والأمان، وهاجس الموت والضيق في الفياقي والفقار، والفلاة والمفاوز. فكم من رحالة فقد بسبب الجوع في الصحاري، أو بسبب المجاعة في البلاد التي قصدوها؛ فالرحلة مخاطرة ومغامرة بالنفس؛ ولذلك كانت الرحلة نحو الحج، غالبا، ما تسير في إطار الركب - وهو جماعة من الناس القاصدين الديار المقدسة - ويكون قائد الركب من العارفين بالجغرافيا بحيث سبق له أن ذهب مرات عديدة وجرب الجبال والأدغال، فيجنبهم الأماكن التي ضربتها المجاعة، ويسر بهم في مواطن الماء والخضرة. حفاظا على حياتهم وتأمين رحلتهم من الجوع والعطش. وقد ارتبطت الثنائيتان ارتباطا عجيبا في كثير من الآيات القرآنية؛ فسيران نهر الجوع يؤدي إلى اضطراب الأوضاع الاجتماعية التي تكون مصدرا للخوف لا محالة. وهاتان الثنائيتان تدوران في فلك نسقين كبيرين؛ هما نسقا الماء والطعام. فوجود الطعام يذهب هاجس الجوع والخوف، وقلة الطعام وندرته تحرك فكرة الجوع واحتماليته. فالطعام هو مدار الجوع والشبع. ولم يكن الطعام مجرد حاجة بيولوجية ضرورية لاستمرار حياة الإنسان وبقائه على قيد الحياة، بل يتخذ الطعام أبعادا إعلامية وثقافية تتجاوز حدود البقاء.

فقد غدا الطعام أفقا للتفكير والتأمل في السياق المعاصر، ولنا في واقع الحال ما يعضد هذا التصور ويقويه، فقد لوحظ من لدن القريب والبعيد - من إنسان اليوم - ما فعلته «دولة» تجاه دولة أخرى؛ إذ منعت عنها الماء وأتلفت أباره وجففت منابعه، وقطعت قنواته. كما منع المجوع الجوع الطعام عنه في صور شتى لإذلاله وتهجير؛ حيث غدا الطعام استراتيجية حربية سياسية من أجل حصار الآخر، وتجويعه وإهانته. لهذا ترفع الطعام عن القيام بالوظيفة البيولوجية والاكتفاء بها، بل حمل النقاد على إثارة أسئلة دقيقة لها علاقة بالاجتماع، والسياسة، والثقافة.

أرجع، لأقول: إن أدب الرحلة والسفر، والجغرافيا من الآداب الزاخرة بهذه المسألة؛ لأنها كانت هاجسا مؤرقا لدى الرحالة في أثناء عزمه على الذهاب إلى الديار المقدسة، أو لطلب علم نافع، أو تجارة رابحة. إن هاجس الجوع كان حاضرا بقوة في ذهن الرحالة المتهيئ للرحلة، وقد تحول هذا الهاجس إلى نسق ثقافي مهيم في المتون الرحلية القديمة؛ وهذا الحضور القوي له ما يسوغه، وقد ذكرت شيئا مما يتصل بذلك اتصالا وثيقا. وأزعم أن نجاح الرحلة والظفر بالمراد راجع إلى وجود الطعام والزاد، وفشل الرحلة ومواجهة مصير الموت مرتبط بتوفر الطعام وحيازته. وساقف عند بعض الإشارات والملاحظات من الرحلة العياشية المسماة «ماء الموائد» (1) لاستكشاف شيء من هواجس الجوع عند الرحالة المغربي أبي سالم العياشي.

1. الجوع الروحي

كما أن لفظة «الموائد» في العنوان قد ترمز إلى المائدة الروحية المرتبطة بالإشباع الروحي بزيارة مقام النبي (صلى الله عليه وسلم)، ويمكن أن ترمز «الموائد» إلى الدلالة العلمية، وهي الموائد العلمية، حيث إن أبا سالم قصد في رحلته بعض العلماء الذين أخذ عنهم، ولا تغيب الدلالة المادية، وهي الموائد التي تكون أداة مصنوعة من الجلد قديما، يوضع فوقها الطعام.

تحيل رمزية «الموائد» بصيغة الجمع ؟ في تصوري ؟



د. محمد أمين الخشوفي

باحث بمؤسسة البحوث
والدراسات العلمية (مبدع) بفاس

فيهما متوجه إلى زمن حصول الجوع. والجوعان على وزن عطشان، وهي صيغة امتلاء ومبالغة، والنظر فيها متوجه إلى جهة الشدة والكثرة¹⁴.

والتَّجَوُّع، على وزن التَّفَعُّل، وهي صيغة تدل على تعمد الشيء وتكلفه¹⁵، فالنظر فيها متوجه إلى الإقلال من الطعام، ولذلك قيل: «توحش للدواء، وتجوع للدواء، أي لا تستوف الطعام»¹⁶.

والمُسْتَجِيع، «الذي يأكل كل ساعة الشيء بعد الشيء»¹⁷، وذلك لعدم شبعه مهما أكل، ولذلك قالوا في العلم: «إن للعلم إضاعة وهجنة وإفاهة ونكدا واستجاعة... واستجاعته: أن لا تشبع منه»¹⁸.

والنظر هاهنا ليس إلى حقيقة الجوع، وإنما إلى كثرة الأكل الدالة عادة عليه، ولذلك جاء هذا المشتق من (استجاع) المفيدة لمعنى الطلب والنسبة، فالمستجيع على هذا: المنسوب إلى الجوع، جاء في الصحاح: «ورجل مُسْتَجِيع: لا تراه أبدا إلا أنه جائع»¹⁹؛ والجوع لا يُرى بذاته، وإنما يُرى بآثره، الذي

منه الأكل، فيستدل به عليه. وأما الإجاعة، والتجوع، فمن أجاعه، وجُوعه، وهو متعد إلى غيره، يفيد إرغاماً على الجوع وإكراهاً عليه واضطراراً إليه بمنعه الطعام والشراب²⁰، فنضمن بذلك تسلطاً على الجائع وسلباً لإرادته، وهو فعل من أفعال الجور والظلم والطغيان، وفيه أنشدوا: أجاع الله من أشبعتموه /// وأشبع من جوركُم أجيعاً²¹

فالنظر في هذا المشتق إلى جهة منع الطعام الذي يتسبب عنه الجوع، والقصد منه إزال الجوع وإخضاعه، ولذلك قالوا في المثل المشهور: «جوع كلبك يتبعك»²².

وخلاصة التأمل في هذه المشتقات أنها أحاطت بكل عوامل الجوع وملابساته؛ إنساناً وزماناً ومكاناً، قلة وكثرة، اختياراً واضطراراً.

رابعاً: الفروق الدلالية بين ألفاظ الجوع في العربية

للجوع في العربية ألفاظ كثيرة ترادفه، ومن تمام البيان أن نقف على أهم الفروق الدلالية التي تميز كل لفظ عن غيره. وأكتفي منها بسنة، هي: المخصصة، والمسغبة، والخصاصة، والخواء، والطوى، والضور.

فأما المخصصة، فهي «مجاعة تورث خُصَصَ البطن»²³، أي ضموره، ومنه قولهم: الإخصص لبطن القدم لضموره²⁴، و«امرأة خميصه البطن وخمصانة»²⁵، إذا ضمر بطنها. والضمور هاهنا عام قد يكون بسبب الجوع وقد يكون خلقه، وإنما تقاطع مع الجوع لأنه أكثر ما يتسبب عنه إذا ارتبط البطن.

وأما المسغبة، فمن السَّغْب، وهو «الجوع مع التعب»²⁶، قال تعالى: (أو إطعام في يوم ذي مسغبة) (البقرة: 14)، فالنظر في هذه المفردة إلى جهة ما ينتج عن الجوع من التعب، وهي مع التي قبلها تنصرف إلى الآثار الظاهرة.

وأما الخصاصة، فهي الفاقة والحاجة²⁷، ومنه: (ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة) (الحشر: 9)، قال الراغب: هي «الفقر الذي لم يسد... والخص: بيت من قصب أو شجر، وذلك لما يرى فيه من الخصاصة»²⁸. فالنظر هاهنا يتوجه إلى ما يتسبب عنه الجوع، وهو قلة ما يسد به الرمي، أو انعدامه.

وأما الخواء، فمن خوي الشيء إذا خلا مما يملأه، والخواء: خلاء البطن من الطعام²⁹، ومنه قولهم: «أصابه الخوى أي الجوع»³⁰، وقولهم: «خَوَّت الإبل تجوئة، إذا خمضت يطونها. وخَوَّت المرأة خوى، إذا لم تأكل عند الولادة»³¹، ومنه: (الخوى) «طعام يُتخذ للنفساء»³²، فالنظر في هذه المفردة متوجه إلى جهة فراغ البطن من الطعام.

وأما الطوى: فهو الجوع، سمي كذلك ل«انطواء البطن وانقباضه بخلو المعدة وحصول الجوع»³³، وفيه أنشد عنتره: ولقد أبيت على الطوى وأظله /// حتى أنال به كريم المأكَل³⁴.

ولذلك نجد الجائع مطوي البطن قد التصق ظاهر جلده ببعضه لشدة الجوع، فهي أبلغ من المخصصة، وأشد منها،

إن مما تمتاز به العربية عن غيرها من اللغات غنى معجمها وتعدد مفرداتها الدالة على معاني متعددة متنوعة داخل مجال دلالي واحد، فتجد المعنى الواحد يُقَارَبُ بألفاظ متعددة، متقاربة في ظاهرها، لكنها من حيث أبعادها الاستعمالية والدلالية يعبر كل منها على خصوصية في المعنى المراد، ولذلك كان الترادف المطلق، الذي يصل إلى حد التطابق بين معاني الألفاظ، لا أصل له عند من وقف على سر العربية وذاق جمال أساليبها وبديع نظمها.

وهذا المقال يتغنى الوقوف على تجليات هذا الغنى في ألفاظ العربية من خلال دراسة لفظ (الجوع) أنموذجاً، بالوقوف على مدار مادته المعجمية، والكشف عن معانيه ومعاني مشتقاته، وبيان الفروق بينه وبين مرادفاته.

أولاً: مدار مادة (جوع) في المعاجم اللغوية تدور استعمالات مادة (جوع) في المعاجم اللغوية على معنى واحد، عبر عنه الدكتور محمد حسن جيل بقوله: «فراغ في جوف الشيء من ذهاب ما كان يملأه»¹.

وهذا المعنى النووي نجده يرافق المادة في جميع استعمالاتها، فهو ماثل في قولهم: «فلان جاع القدر إذا لم

تكن قدره ملاء»²، وقولهم: «امرأة جائعة الوشاح إذا كانت ضامرة البطن»³، والجوعة: «إقفار الحَي»⁴. وقال أبو زيد: «تقول العرب جُعت إلى لقائك وعطشت إلى لقائك»، ومعناه اشتاق إلى لقائه⁵، وذلك لأن الشوق إلى المحبوب يخلف فراغاً في القلب لا يملأه إلا الوصال. ومن أمدار الجوع، وبيانه مع مشتقاته فيما يلي:

ثانياً: معنى الجوع في المعاجم اللغوية عرف الجوع بتعريفات متعددة؛ بعضها بالضد، وهو مذهب أغلب أصحاب المعاجم اللغوية؛ قالوا: «الجوع ضد الشبع»⁶، ويظهر المدار هاهنا في كون الشبع امتلاء البطن بالطعام⁷. فكان الجوع ضده؛ وهو خلو البطن وفراغه مما يملأه من الطعام، جاء في معجم الدوحة التاريخية: «الجوع: الحاجة إلى الطعام؛ لخلو المعدة منه»⁸.

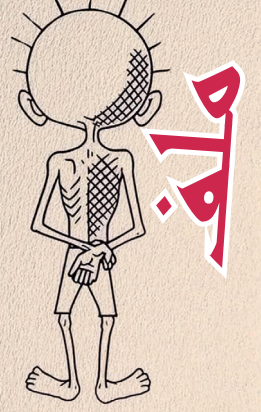
وعرفه الراغب الأصفهاني بقوله: «الجوع الألم الذي ينال الحيوان من خلو المعدة من الطعام»⁹، وهو تعريف بلازمه، وهو الألم، غير أنه ألم مخصوص يرتبط ضرورة بخلو المعدة من الطعام، حتى إذا امتلأت طعاماً زال وشفي، وعبر بلفظ الحيوان في التعريف ليعم الإنسان وغيره، وهو تعبير لطيف يدل على أن لفظ الجوع يستعمل في الذوات ذات المعد، فلا يستعمل في النبات وما شابهه.

ولعل الراغب كان يراعي الاستعمال القرآني في تعريفه، فضمنه السمات الدلالية التي ورد بها في سياقاته؛ حيث ورد خمس مرات¹⁰، ارتبط فيها بلفظ الخوف في ثلاث، منها: (الذي أطعمهم من جوع وأمنهم من خوف) (قريش: 4)، وبالعربي: (إن لك ألا تجوع فيها ولا تعرى؟) (طه: 118)، وبطعام أهل النار: (لا يسمن ولا يغني من جوع) (الغاشية: 7). وكلها سياقات ترتبط بالمكراه؛ ابتلاء أو جزاء، وقد أشار إلى ذلك الجاحظ بقوله: «لا ترى أن الله تعالى لم يذكر في القرآن الجوع إلا في موضع العقاب أو في موضع الفقر المدقع والعجز الظاهر»¹¹.

ثالثاً: مشتقات الجوع في المعاجم اللغوية وللجوع مشتقات كثيرة في المعاجم اللغوية، ننتخب منها: الجوعة، والمجاعة، والمجوعة، والجوعان، والتجوع، والمستجيع، والإجاعة، والتجوع.

فأما الجوعة، فالنظر فيها من جهة العدد؛ إذ المقصود منها المرة الواحدة¹².

وأما المجاعة، والمجوعة؛ عامٌ فيه جوع»¹³. فالنظر

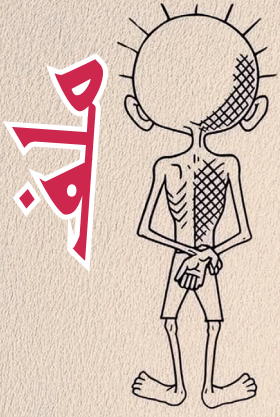


ألفاظ الجوع في العربية

دراسة معجمية



فلسفينا



لباس الجوع

نظرات في واقع مريع



لطيفة أسير

ربوعه عبر فترات تاريخية متباعدة بالهند والصين، وروسيا، وبلدان إفريقيا، وغيرها... مأس إنسانية صاحبت التاريخ البشري، وكتبت بمداد من الألم، مؤكدة فظاعة الجوع وآلام المجاعات المصاحبة لها.

واليوم، يأبى قدر هذا الجيل إلا أن يعاين ما كان مقروءاً قديماً، ويستشعر حجم الألم بشكل أفضل؛ لأن الصوت والصورة أكبر أحياناً من أي كلمات، في زمن التكنولوجيا والتقدم العلمي يابى العلم إلا أن يوثق وحشية الإنسان في القرن الحادي والعشرين، ويفضح كل أشكال المعاناة والتجوع المنهج الرامي لكسر إرادة شعب حر أبي... غزة - اليوم - وهي تعاني وحيدة حرب التجويع المنهج كشفت الكثير من سوءات هذا العصر الواهم أهله

بالحضارة والحقوق البشرية.. غزة غرست خنجراً في خصر كل قادر وعاجز.. فضحت جبروت التجبرين.. وطعم الطامعين.. وزيف الحقوقيين.. وقبح المتخاذلين.. وضعف العاجزين.. ولا إنسانية المحابدين.. لكنها - بالمقابل - أظهرت عزة المحاصرين، وشموخهم، وصبرهم، وإباءهم.. جوع غزة - اليوم - يسائل فننا إنسانيتنا قبل عقيدتنا، ماذا نحن فاعلون ونحن نبصر الطاغوت بمضي قدماً في خطته الحربية اللئيمة والمنهجية تحت رعاية كبريات الدول التي ما فتئت تتغنى بحقوق الإنسان؟! ماذا نحن فاعلون ونحن نشاهد في كل لحظة صوراً لأطفال ينبشون القمامة بحثاً عن لقمة تسد جوعهم؟! ماذا نحن فاعلون وصرخات الألم توثق كل حين من أجساد أنهلك الجوع حتى بدت هياكلها العظمية؟! متى نستفيق من سباتنا ونحن نبصر طوابير الناس تتسابق لأجل الحصول على كيس طحين ونحن نأكل آمين في بيوتنا وقد فاض علينا الكثير من أنواع الطعام؟! ألم تكسر دموع الرجال أنفسنا ونحن نلمحها تنزل تعبيرا عن قهر ما عادت تطيق حمله هذه الإيرادات الفولاذية؟! ألم تتحرك نخوتنا حين نشاهد النساء والأطفال يتساقطون أرضاً من شدة الجوع وعلامات الأسى

بادية على وجوههم وأجسادهم؟! بل إن لحظات الحصول على الطعام باتت مصائد للموت وكما إن لإزالة أعزة القوم، وفخاخاً لاصطياد الأبرياء الجوعى.. فهذا هو الطفل سعيد أبو يونس يعلن عن موته جراء سقوط صندوق مساعدات عليه بعد عملية إنزال جوي للمساعدات جنوب مدينة خان يونس.. وها هو أمير.. هل أذاك نبا أمير.. وأه مما حدث لأمر وقد وثقت الكاميرا مشاهد حياته الأخيرة!!

حكي المتقاعد السابق مع مؤسسة غزة الإنسانية «انتوني إغيار» الذي كان شاهداً عياناً على هذا الحادث المأساوي، وتفاصيل لقائه بالشهيد لإحدى القنوات التلفزيونية، حيث التقاه في 28 مايو عند نقطة توزيع المساعدات رقم 2 في رفح جنوب قطاع غزة، وصل الطفل وحيداً بلا أهل أو مرافقين حافي القدمين منهكاً صغيراً نحيفاً جلده مشدود وعظمته بارزة ويبدو عليه الجوع الشديد، بعد أن قطع مسافة ثمانى كيلو مترات سيرا على الأقدام للوصول إلى مكان توزيع المساعدات. كان معه نصف كيس من الأرز وكمية بسيطة من العدس والفول ولم يحصل على ما يكفي مثل الآخرين. وأشار إلى أن الطفل أمسك بيده ويد زميله وقبلهما وقال لهما بالإنجليزية «Thank you».. لكن نقطة التوزيع بعد مغادرتهم تعرضت للقصف الصهيوني فأخذت الجموع في التدافع وأصيب من أصيب ومنهم الطفل أمير.. واختتم الشاهد شهادته في حق الشهيد أمير قائلاً: «أمير كان روحاً فلسطينية صغيرة تجسد المأساة الإنسانية بكاملها، لم يطلب سوى القليل من الطعام ليعيش لكن الاحتلال قرر أن يرد عليه بالرصاص».

فكم من أمير صغير وكبير هناك بأرض العزة يظهر عليه لباس الجوع، غاية ما يطلبه أن يتمتع بأبسط حقوقه على أرضه، أن يتناول لقيماته بعزة وكرامة، أن يحيا بشموخ وإباء فوق أرض نما وترعرع بين أحضانها، لكن وحشية النظام العالمي الجديد كثرت عن أنيابها وأكدت أنها لا تمت للإنسانية بصلة، مارد كلما طال عليه زمن الصمت اشتد عوده وبسط نفوذه ليسحق كل منأوى ومعارض.

الحياة مسرح لكل اللحظات الإنسانية التي تتسجم مع طبيعة هذا الكائن، فلا تكاد تخلو حياة المرء من تجارب شتى تعكس نباهته وقوته وعلو همته، وتجارب تحكي ضعفه وتكسر كبرياءه وتفضح وحشيته أحياناً.

وعبر التاريخ الإنساني عاشت البشرية تجارب كثيرة كانت أشدها إيلا ما تلك الأزمات الخائفة التي صاحبت الحروب والمجاعات والأوبئة. وإننا اليوم إذ نشهد عياناً أحد أبشع هذه الأزمات بس: «غزة العزة» لا يسعنا أن نمر عليها مرور الكرام، بل بعض الحياء الإنساني يفرض الحديث عنها والتبرؤ ممن كان سبباً في حدوثها. في كتب أهل التاريخ والأدب - قديماً وحديثاً - نجد وصفاً دقيقاً لأحوال الناس إبّان المجاعات، إنه وصف يكاد يذهل المرء وهو ينظر لصوره المؤلمة ومعاناة الجوعى التي تذهب باللب وتعمي البصر والبصيرة، فتجعل الجائع فريسة لكل فعل شنيع..



من أعمال الرسام الفلسطيني يوسف كتلو

فقد تحدث ابن كثير عن المجاعة بالعراق وبلاد فارس سنة 449 هـ، فحكى عن فظاعات لا تكاد تخطر على البال؛ ومما جاء في حديثه: «خلت أكثر الدور وسدت على أهلها أبوابها بما فيها، وأهلها موتى فيها، ثم صار المار في الطريق لا يلقى الواحد بعد الواحد، وأكل الناس الجيف والنتن من قلة الطعام، ووجد مع امرأة فخذ كلب، وشوى رجل صبية في الآتون، فقيل وسقط طائر ميت من حائط فاحتوشته خمسة أنفس فافقتسموه وأكلوه، وورد كتاب من بخارى أنه مات في يوم واحد ثمانية عشر ألف إنسان، وأحصى من مات في هذا الوباء من تلك البلاد إلى يوم كتب فيه هذا الكتاب بألف ألف وخمسمائة ألف وخمسين ألف إنسان... ووقع الوباء بالأهواز.. وكان الفقراء يشيرون الكلاب وينشون القبور ويشيرون الموتى ويأكلونهم بالأمهوز...» (البداية والنهاية: ج 12، ص: 70 - 71).

وعن المجاعة بمصر سنة 597 هـ، قال ابن كثير أيضاً: «فيها اشتد الغلاء بأرض مصر جدا فهلك خلق كثير جدا من الأغنياء والفقراء، ثم أعقبه فناء عظيم حتى حكى الشيخ أبو شامة في الذيل أن العادل كفن من ماله في مدة شهر من هذه السنة نحواً من مائتي ألف وعشرين ألف ميت، وأكلت الكلاب والميتات فيها بمصر.. وأكل من الصغار والأطفال خلق كثير، يشوي الصغير والداه ويأكلانه.. وكثر هذا في الناس جدا حتى صار لا ينكر بينهم.. كان الرجل يحتال على الفقير فيأتي به ليطعمه أو ليعطيه شيئاً ثم يذبحه ويأكله.. وكان أحدهم يذبح امرأته ويأكلها وشاع هذا بينهم بلا إنكار ولا شكوى، بل يعذر بعضهم بعضاً...» (البداية والنهاية، ج 13، ص: 26).

هذه المشاهد البشعة والشنيعة تجعلك تصدق المثل السائر «الجوع كافر»؛ لأن الإنسان - جوع بطنه الشديد - قد يفقد توازنه، وإنسانيته فيغدو الطعام أول همه، وقس على هذه الأخبار أنباء المجاعات الكثيرة التي اجتاحت العالم في شتى

وسمي من بلغ به الجوع هذا المبلغ الطاوي، فإذا ازداد شدة فهو الطيان بصيغة المبالغة 35. وأما الضور، فهو الجوع الشديد 36، ومنه التحضير «الصباح والتلوي عند الضرب أو الجوع» 37، وهذا حين يبلغ الجوع مداه، فلا يظهر أثره على البدن فقط، وإنما تتزعج ألامه صباحاً وصباحاً مدوياً، فيكون بذلك قسيماً للضرب والتعذيب الشديد الموجع.

وقد ذاق أهل غزة بفلسطين السليبية المحتلة، أطفالاً ونساء، شبيهاً وشباناً، كل أنواع الجوع ومراتبه، فملاً صراخهم الدنيا تحت وطأة تجويع عدو غاشم تجرد من إنسانيته كلها، فهل يسمع العالم الصرخة؟ أم أن في آذنيه وقراً؟

هوامش:

- 1 - المعجم الاشتقاقي المؤصل لألفاظ القرآن الكريم/ جوع.
- 2 - تهذيب اللغة/ جوع.
- 3 - لسان العرب/ جوع.
- 4 - لسان العرب / جوع.
- 5 - ينظر أساس البلاغة/ جوع.
- 6 - العين، التهذيب، المقاييس، التاج، اللسان.../ جوع.
- 7 - جاء في العين/ شبع: «الشَّبْعُ: اسمٌ ما يُشْبَعُ من طعام وغيره».
- 8 - معجم الدوحة التاريخي للغة العربية/ جوع.
- 9 - مفردات ألفاظ القرآن/ جوع. وتبعه في قيود هذا التعريف المصطفوي بقوله: «الجوع حالة مؤلمة في قبال الشبع». التحقيق في كلمات القرآن/ جوع.
- 10 - ينظر المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، ص: 186.
- 11 - البيان والتبيين، 41/1.
- 12 - ينظر الصحاح/ جوع.
- 13 - العين، تهذيب اللغة/ جوع.
- 14 - قال الراغب: «ويقال: رجل جائع وجوعان: إذا كثر جوعه». مفردات ألفاظ القرآن/ جوع.
- 15 - جاء في الصحاح/ جوع: «وَجُوعٌ، أي تعمد الجوع».
- 16 - لسان العرب، تاج اللغة/ جوع.
- 17 - تهذيب اللغة/ جوع.
- 18 - لسان العرب/ جوع.
- 19 - الصحاح/ جوع.
- 20 - جاء في معجم الدوحة التاريخي/ جوع: «جَوْعُهُ: منعه الطعام والشراب».
- 21 - تهذيب اللغة، لسان العرب/ جوع.
- 22 - لسان العرب، تاج اللغة/ جوع. وهو من الأمثال الدارجة على لسان المغاربة، وأصله موجود في المعاجم اللغوية القديمة.
- 23 - مفردات ألفاظ القرآن/ خصص.
- 24 - الصحاح/ خصص.
- 25 - العين/ خصص.
- 26 - أساس البلاغة/ سغب.
- 27 - المعجم الاشتقاقي/ خصص.
- 28 - مفردات ألفاظ القرآن / خص.
- 29 - العين/ خوي.
- 30 - أساس البلاغة/ خوي.
- 31 - مقاييس اللغة/ خوي.
- 32 - مختار الصحاح/ خوي.
- 33 - التحقيق في كلمات القرآن الكريم/ طوى.
- 34 - العين/ طوى.
- 35 - تنظر هذه الصيغ في العين/ طوى.
- 36 - تهذيب اللغة، ومقاييس اللغة، وتاج العروس/ ضرور.
- 37 - الصحاح/ ضرور.

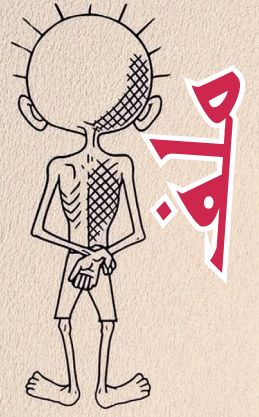


د. خالد التوراني

أدب المجاعة والروحانيات

يُنتمي أدب المجاعة إلى حقل إبداعي يرصد تجارب الجوع الجماعي والفردى، ليس فقط - بوصفه حدثاً اجتماعياً وتاريخياً أو سياسياً، ولكن باعتباره تجربة إنسانية عميقة تمسّ كينونة الإنسان وعلاقته بالوجود والطبيعة والكون، عندما نتحدث عن «الأدب والمجاعة»، فإننا نناقش كيف تُنقل المعاناة الجسدية إلى نصوص أدبية تحمل أبعاداً فلسفية وروحية، وهنا يبرز السؤال: كيف تعامل التصوف مع مفهوم المجاعة؟ وكيف نظر الصوفية إلى الجوع ليس كعقاب أو محنة، ولكن كحالة روحية قد تقرب من الله؟

ي



الجوع من منظور التجربة الصوفية

في التجربة الصوفية يصبح الجوع اختياراً شخصياً، أي يتحول إلى أداة للتربية والترقية، ووسيلة للتعبير عن الزهد والورع، فهو رياضة روحية وتطهير للنفس وليس مجرد انقطاع عن الطعام. في الممارسات الصوفية يهدف الجوع إلى تحرير النفس من سيطرة الشهوات والتخلص من سلطة الجسد، فالصوفية يرون أن الشبع الجسدي يؤدي إلى ثقل الروح، بينما الجوع يخفف من ارتباط القلب بالعالم المادي، فيصبح العبد أقرب إلى حالة التلقي الروحي والارتقاء إلى عالم النقاء والصفاء في التشبه بالملائكة.

ولذلك اعتبر بعض الصوفية الجوع نوراً، مثلما يذكر الشيخ الأكبر ابن عربي في كتابه الفتوحات المكية، حيث يعمل الجوع على تحفيز قدرة الإنسان على اكتشاف الحقائق، بينما الشبع نار، لأنه يغذي النفس ويقويها فتسيطر على صاحبها، بينما تجويعها فيه إزال لها وإخضاعها. والجوع عند أبي حامد الغزالي، كما يذكر في كتابه إحياء علوم الدين، يقوي الفكر ويصفي القلب ويجعله مؤهلاً لتلقي الأنوار الإلهية، بدليل أن كثيراً من الأنبياء والأولياء كانوا يكثر من الصوم لبلوغ مراتب الكشف.

وفي سيرة سيدة العشاق الإلهي رابعة العدوية يحضر الجوع باعتباره بحثاً عن لذة روحية أعمق من الطعام، حيث كانت تقول: «أذوق طعم الجوع فأجد فيه حلاوة لا يعرفها من يشبع»، وهذا يعني أن الجوع الاختياري له مذاق الالتذات، ومعاناة الجسد تتحول إلى نشوة روحية وسعادة قلبية، لأن الإنسان يصبح أكثر رؤية للحقائق، فالطعام حجاب، والجوع كشف عن الحقيقة؛ حقيقة الافتقار إلى الحق سبحانه، وبذلك يصبح الجوع والشبع وسلتين



يُوثق أدب المجاعة محطات مؤلمة من تاريخ البشرية، عندما يتحول الطعام إلى فاصل بين الحياة والموت، لأسباب كثيرة تأتي المجاعة وتغير مجرى حياة الناس، بل تغير القيم والأخلاق، بحيث تؤدي في كثير من الأحيان إلى فقدان الإنسانية؛ عندما نقرأ عن أكل لحوم البشر وعن نبش القبور وأكل الأطفال الرضع، مشاهد مرعبة تعاكس فطرة الإنسان، وتتصادم مع الذوق العام، ولكنه الجوع العدو الأكبر للبشر، يفعل بصاحبه ما لا تفعله أعتى الأسلحة وأقوى الأعداء، الجوع لا يرحم، لقد أكل الناس أطفالهم في أوقات السغب الشديد، ولذلك عند المسغبة يعزّ الطعام، ويكون أجر الإطعام كبيراً جداً، بل بغير حساب، كما ورد في القرآن الكريم: «أَوْ إِطْعَمٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ» (البلد: 14).

وأحياناً يتحول الجوع إلى أداة للقهر مثل حصار الأعداء، وإبادة شعب، أو أداة للتغيير؛ فالكثير من الثورات كان سببها الجوع، فالغذاء سلاح، ومثلما أن الجوع نقمة، فإن الوفرة قد تكون نقمة أيضاً، لأن التخمّة مثل الجوع، كلاهما قد يؤديان إلى فقدان القيم والأخلاق.

في الأدب يصبح الجوع رمزا للتعبير عن قضايا الحرية والفراغ الروحي وفقدان الذاكرة، حيث إن أدب المجاعة هو صوت ضد الفراغ والموت، وتمرد على النسيان والإهمال، وهذا يعني أن الجوع يتجاوز ما هو طبيعي ناتج عن نقص الغذاء، إلى ما هو من تدبير البشر ناتج عن قصد بشري في إلحاق الأذى بالآخرين. إن أدب المجاعة بمثابة نصب تذكاري موجّه للأحياء وليس للأموات الذين فقدوا أرواحهم بالجوع، ليكون الأحياء على حذر، ولتبقى ذكرى المجاعة حاضرة في الأذهان، فلا يفقد المرء الإحساس بالنعم.

للقرب من الله، وليس مجرد حاجات بيولوجية طبيعية، أي التعبير عن الرضا التام في الحالتين، بين الشكر والحمد، بين الوجد والفقد، بين الحضور والغياب، تتحد الأضداد في السلوك الصوفي، لأن من وجد الله وجد كل شيء، فلا يضر جوع ولا شبع، تستوي المتناقضات وتتحد.

يعتقد الصوفية أن الجوع يحدث فراغاً جسدياً يملأه الله بأنوار المعرفة، ولذلك تعددت الأقوال التي يمدح فيها الجوع، ويذم الشبع، فالجوع يفتح أبواب الحكمة، ويعلم الإنسان الصبر والتحمل، إنه مجاهدة حقيقية للنفس في إضعاف قدراتها بقطع المدد المادي عنها، لتتصل بالله وحده، وهذا معنى الرياضة الروحية.

في التجربة الصوفية، يميز المتصوفة بين نوعين من المجاعة: الأولى اختيارية والثانية اضطرارية:

الأولى جوع المجاهدة الاختياري وهو رياضة روحية ينبغي ممارستها من حين لآخر، لأسباب تربوية، فهي مجاعة لطيفة تختصر المسافات على السالك، ليلبغ المقصود بأقل المجهود، أي الامتناع عن الطعام مؤقتاً. الثانية جوع الاضطراب القسري وهو نوعان: جوع ناجم عن عوامل طبيعية مثل الجفاف أو الطاعون، فإن الصوفي يتعامل معه بالتسليم والرضا، ويعدّه ابتلاء يُحتسب أجر الصبر عليه، فالموت يعدو الطاعون أو المبطون، شهادة وترقية في الدار الآخرة. وجوع ناجم عن ظلم اجتماعي مثل تجبر الحكام أو احتكار الأغنياء، فهنا يقوم الصوفية برفض المجاعة عبر إطعام الطعام والجود بالصدقات واستصلاح الأراضي وحفر الآبار وشق الطرق.. وغير ذلك من أعمال البر والإحسان، لأن الإسلام يحرم تجويع الناس أو التضيق عليهم في معاشهم.

إن الجوع في التصوف ليس إنكاراً للجسد، بل تحويلاً للضرورة إلى اختيار، وللمعاناة إلى مناجاة. فهو بوابة من بوابات السلوك إلى الله، حيث يصبح الحرمان الجسدي شرطاً للامتلاء الروحي. لكن الصوفية يرفضون أي تمجيد للمجاعات القسرية، لأنهم يدعون إلى جوع «مقدس» طوعي، لا إلى جوع «مدنس» مفروض وقسري.

في الرؤية الصوفية، لا تكون المحنة عقاباً دائماً، بل قد تكون تكريماً واختباراً يُظهر من خلاله الله صدق عباده. والمجاعة - كأحد أقسى أنواع المحن - تعدّ ميداناً لاختبار صدق الإيمان، حيث يتجلى الصبر والرضا كأعلى مراتب التسليم. ولا يعني هذا أن فالجوع فضيلة مطلقة، بل فضيلته في السياق والنية والأثر.

في التجربة الصوفية، لا خوف على الإنسان من المجاعة، بل الخوف من الشبع، ذلك أن الجوع فرصة للخلاوة الحقيقية مع الله بعيداً عن انشغالات الجسد وهواجس تدبير احتياجاته، فكلما زاد الجوع زادت قدرة المرء على تذوق المعاني واتسع القلب لتلقي أنوار القرب ومعرفة الحقائق، فالحرمان المادي جسر العبور نحو الأمن الروحي في بعده العميق، وبهذا المعنى تصبح المجاعة مصفاة للقلوب للتمييز بين الصادقين والمنافقين، وخاصة عندما يكون الإلحاح على الجوع في صمت ودون شكوى أو إظهار الافتقار، وإنما هو عمل قلبي بالأساس يراد منه صدق التوجه إلى الله دون أي رياء أو محبة ظهور واستعلاء على الناس، فالتفوق على النفس بقرها، لا يعني التفوق على الغير، بل لا يجب أن ينصرف ذهن المتصوف إلى هذه الخواطر التي تصرفه عن الأمر الجلل وهو الاقتراب من الحق والفناء عن النفس وعدم رؤية الذات، مصداقاً للحديث الشريف: فإن لم تكن، فإنك تراه.

إن الصادقين في السلوك إلى الله لا يفكرون عن ذكر

الله حتى ولو اشتد بهم الجوع والعطش، يبقون أكثر ثباتاً على المحبة، ولو حرّموا الوصال، لا يزيدهم البعد إلا حنيناً وشوقاً، بخلاف غيرهم ينكشفون عند أول محنة فيشكون أو يترجعون عن السير. وهذا يشبه ما ورد في القرآن الكريم: «أَحْسِبِ النَّاسَ أَنْ يَتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ» (العنكبوت: 2)، حيث يفهم أن الفتنة (ومنها المجاعة) هي التي تظهر الإيمان الحقيقي من الزائف، وكما أن النار تكشف عن حقيقة المعادن، فإن نار الفتنة تكشف عن معادن الناس، وتبرز خصالهم وطباعهم الحقيقية، في أوقات المحن تمتحن الأخلاق، ويعرف المرء أقرس تحته أو حمار، وهذا معنى «وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ» (الذاريات: 21)، إذ أحياناً كثيرة يجهل الإنسان نفسه، ولا يعرف حقيقتها إلا في المواقف الصعبة.

في التجربة الصوفية الجوع ليس سلبياً، بل مرآة تعكس حقيقة النفس، واختباراً لصدق الإيمان؛ فبينما يُظهر العامة الجزع والخوف من الجوع، يُظهر العارفون الشكر والصبر والاحتساب عند حدوث المجاعة، بل قد يرون في الجوع فرصة ذهبية تعيدهم إلى الله. لكن هذا لا يعني السكوت عن الظلم، لأن الرضا بالقدر لا يتناقض مع الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. وهنا يبرز الفرق الجوهرى بين جوع مقدس كاختيار العباد والزاهدين، وجوع مدنس كظلم الحكام والمستبدن. فالأول طريق موصل إلى الله، والثاني علامة على بُعد البشر عن عدله.

في التصوف، لا يعني الزهد رفض الحياة وزينتها، بل الترفع عن بعض المباح، والتحرر من عبودية المادة. ولذلك يختار الصوفية الجوع لأنه يقوي الإرادة ويكسر شهوة التملك والاستعلاء على الخلق، إنه تدريب على صفاء ذهن ونقاء القلب، لكن ينبغي أن يكون اختياراً صادراً عن محبة، وأن يصدر عن رغبة صادقة في طلب ما عند الله، ولذلك يجود الصوفي بالطعام على غيره، ويحرم نفسه، وقد جاء في الأثر: «مَنْ تَرَكَ شَيْئاً لِلَّهِ عَوْضَهُ اللَّهُ خَيْراً مِنْهُ».

خاتمة: الجوع بين الانهيار والارتقاء

إن أدب المجاعة، بوصفه سجلاً إنسانياً حياً، يكشف عن ثنائية مدهشة في الموقف من الجوع: فهو قد يكون حافزاً للارتقاء أو عاملاً للانحطاط والانهيار، ففي اللحظة التي يحول فيها الجوع القسري الإنسان إلى كائن يكافح للبقاء بأي ثمن نجد أن الجوع الاختياري في التصوف يصبح بوابة للتحرر الروحي. وهنا تكمن عبقرية الرؤية الصوفية التي تميز بين الجوع الإرادي بوصفه مدرسة، وبين الجوع المفروض بوصفه سجنًا. وشتان بين المدرسة والسجن. فبينما يُقدس الزهد الاختياري، يرفض تماماً التبرير الديني لأي معاناة بشرية مفروضة. وكما يقول الجنيد البغدادي: «مَنْ رَأَى مَبْتَلَى فَقَالَ: الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي عَافَانِي، فَقَدْ أَخْطَأَ طَرِيقَ الشُّكْرِ»، لأن الشكر الحقيقي يقتضي مشاركة الآخرين معاناتهم. إنها رؤية العارفين وليست رؤية العاديين.

يلتقي الجوع والتصوف عند نقطة جوهرية: أن الجوع ليس مجرد حاجة جسمية، بل هو اختبار للإنسان في

عدالته وحكمته وإيمانه. وفي هذا تكمن عبقرية أدب المجاعة: في كشفه أن خلف كل جوع قصة، وخلف كل قصة إنسان، وخلف كل إنسان عالمٌ يستحق الفهم والاحترام، والجوع ليس فقط حرمان النفس من الطعام بل أن تجود بطعامها على الغير، بمحبة وإيثار، ففي ذلك فلاح وصلاح وانسراح الصدر، كما نقرأ في هذه الآية: «وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقِ شَحْنَهُ



فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ» (الحشر: 9)، وبالطبع، هذا مقام العارفين، الذين يرون ما وراء الحجب، وينظرون إلى ما وراء الطعام، وقد يبدو هذا السلوك عند أغلب الناس تعذيباً للنفس بحرمانها من حقها الطبيعي في الأكل، لكنه في سيرة العارفين عذوبة وليس عذاباً، أمنا وليس خوفاً، نوراً وليس ظلمة، امتلاءً وليس فراغاً. أخيراً، إذا كان أدب المجاعة قد حفظ لنا صرخات الجائعين عبر التاريخ، فإن الرؤية الصوفية تقدم مفتاحاً لفهم كيف يمكن تحويل الألم إلى وعي. ليس هذا فحسب، بل إن دروس المتصوفة في التعامل مع الجوع تقدم اليوم إجابة عن سؤال مركزي: كيف نواجه تهديدات المجاعات الحديثة التي تخلقها الحروب والتغير المناخي؟ ربما تكون الإجابة في التجربة الصوفية وما تقدمه من مؤهلات في الصبر والاحتساب، وفي تحويل المجاعة من نقمة إلى نعمة.



د. محمد بودويك

الحركة الصوفية التي ما انفكت تُكَيِّل المديح للعلّة والاعتزال، والجوع والتجوع، فالأساطير الغميسة، والديانات الأرضية والسمائية كالت له المديح ما دام أن العبادات والطقوس المختلفة لا يقوم بها، ولا يقدر عليها إلا جائع، إلا طأوَ (فهل يكون المذهب الطاوي الذي يمجّد الصمت والسكينة والجوع، جاء من الطوى، أم أن لفظ الطوى العربي انتقل إلينا من الصين في إطار المثقفة والتجارة القديمتين؟).

الصوم جوع بمعنى من المعاني، دَعَتْ إليه الديانة الصابئية المندائية، والبوذية على الرغم من قول بوذا بأن « الجوع أسوأ داء »، والذي كان كثير الجوع والصيام المبددين. كما دعت إليه الزرادشتية بحُسن، والمصرية الفرعونية، والديانات التوحيدية: اليهودية والمسيحية والإسلام، مع تفاوت يقل أو يكثر بينها. ففيها جميعها، مَدَح الصيام أي الجوع، وإن اقتصر على الإمساك عن شهوتي البطن والفرج في حال الإسلام.

لقد ذُمّ المتصوفة شرّ الطعام، وعظموا الجوع. فالإمام الغزالي مع آخرين، يعتبر الجوع « موتاً أبيض »، يهدف إلى ترويض النفس، وتنقية القلب، وفتح البصيرة مما يساعد على تحقيق الصفاء الروحي، والفناء في الله. فهو جزء من الزهد، (أليس الصوم كذلك وإن كان ما يحدث اليوم من تكالب على الشهوات والمذات من أطعمة وأشربة باذخة، يفنّد من بعض وجوهه، ما نقول؟)، جزء

من الزهد يتضمّن الإعراض عن شهوات الدنيا، وهو ما يُمكن المريد من مواجهة النفس، وتحقيق الرياضات الروحية اللازمة للتصوف. وللمستزيد أن يتصفح كتاب أبي حامد الغزالي: (إحياء علوم الدين)، ليطالع أكثر على الفوائد العشر للجوع..

ويرى الشيخ الأكبر أن الجوع الحقيقي ليس جوع العامة، بل هو جوع « الهمة ». ولا يُعزّب عن بالنا. لحظة - أن بعض الأئمة والمتصوفة ذمّوا المبالغة في الجوع لأنه موصل إلى الخيالات والخيال والتلبّسات، حيث يظن الجائعون « السالكون » أنهم وصلوا، وما وصلوا، إنما هي تمثّلات وأضغاث، وأطياف شيطانية ليس إلا.

على مستوى آخر، فإن الكلام عن الجوع أو الطوى بما هو حالة مُنهكة، ووضّع نفسي مأكول، وفيزيولوجي مُميت وشرس، لا يمدحه إلا مستهتر أو غافل متغافل عن عقابله وأوْحَم عواقبه على الأب والأم والأبناء.. على الإنسان. إنه الجوع « الكافر » كما نعتة وغناه الموسيقار الراحل زياد الرحباني في أغنيته الحزينة والشجية والدالة: (أنا مش كافر.. بس الجوع كافر.. بس الفقر كافر...).

عرفت بلادنا، في أحقاب وتواريخ مختلفة ومتعاقبة، أسوة بدول المعمور كدول إفريقية، وبعضاً من الدول الأوروبية والآسيوية، كارثة الجوع الذي تحول إلى مجاعة ومسغبة ومخمصة، تحول إلى سنوات « الرمادة » قياساً على عام الرمادة المعروف تاريخياً على عهد الخليفة عمر بن الخطاب، مع جائحة الجراد الذي له صحبة معقودة مع الجفاف حيث يأتي على الأخضر واليابس في لحظة كأنها الحتف.. كأنها الخطف. أما التسميات التي تترى في المجال إياه، فعام الطاعون، وعام بوكليب، وعام البون، وعام يرّة، وعام الحمى الإسبانية الصفراء، وهلمّ أوصافاً مفرزة لكن شرسة، وإمارات باقية، ومِحطات وبائية موقّعة تنهض إثباتاً لفعل الجوع المذلة والحاطة بالكرامة الإنسانية خصوصاً إذا عرفنا أن الجوعى - في لحظة يأس سوداء، بل لحظات يأس تعاودت - أكلوا الجيف، وأوراق الشجر، واقتلوا ما بقي من نبات كالحمضة والدوم والهندباء وغيرها. فإذا نفقت، باعوا أولادهم لقاء كيس دقيق أو أوقية من سكر وشاي، أو ضربوا في أرض الله بحثاً عن منقذ أو معجزة.

هذا وجه من وجوه الجوع حين يتحول إلى فناء بالمعنى الصوفي، وبالمعنى العام العادي. فناء أول يرتفع بشكل أو بآخر، وفناء ثان يؤدي بصاحبه إلى التهلكة والموت. أما فقاه فمقرّون بمفهوم الصوم والصيام، ومفهوم التنسك والرياضة والإشراق، إذ الأمر يتصل بقهر البدن، والجسد الخبيث النبيت، بإعلاء النفس والروح، فهي الجوهر الخالد الذي يبقى. أما البدن فمادي تراخي رخيص وجوده قصير، وحيزه ضيق. ومن ثم أبلى المتصوفة والغنوصيون، والأفلاطونيون الجدد، البلاء الحسن شعراً ونثراً في تقدير النفس والروح واصفين، مقارنين، محتسبين، مراهنين على الآخرة، ومتبرمين من الدنيا.

تنويه: لم نأت على تجويع الغزيين المظلومين أطفالاً ونساء ورجالا، من قبل الصهاينة الفاشيين. تركنا ذلك لمقال آخر أت، وإن كنا ندرك أن الكتابة لن ترفع عنهم الحصار، قضاها أن تفصح وتعزي، وتنهض شاهد إثبات.

الجوع جُوعَات: جوع بالاختيار، وجوع بالاضطرار، وجوع بالاضطرار. فأما الجوع بالاختيار، فيحل بالبدن، وينزل برداً عليه وفقاً لرغبة في التطهير والتنقية والاحتساب. غير أنه موقوت في الزمن لا يتمدد ولا يطول إلا إذا عاود الجائع بالاختيار، دخول التجربة ثانية، وتمرن على الصبر والاحتمال. وأما الجوع بالاضطرار فيحدث أساساً برغبة ومسعى حقوقي أو مطلب سياسي فكري يُؤدّد بالاضرب عن الطعام والشراب طالما أحس الجائع المضطر بأنه مظلوم، وأن حقه في التعبير والتفكير والاختلاف والضمير، منتهك ومستباح، وراهن - من ثمة - على تقنيت إرادة وطغيان الجائر والظالم. في حين يُعدّ الجوع بالاضطرار، جوعاً « واجباً » بمعنى ديني، أو نذراً من النذور طوق الإنسان به عنقه. ومُسَمَّاه في الاصطلاح الشرعي: « الصوم »، أو الصيام بعبارة أدق. الجوع غير المجاعة إذ الفرق بينهما يكمن في أن الجوع يرتبط بالفرد، فهو شخصي موقوف على الواحد.. الواحد، حتى إذا استفضل واستشهى الأفراد وانتقل بينهم، وطال الجموع المتكثرة،

صار مجاعةً، صار وباء مهيمناً، وجائحة رائئة، وتسمى بفصيح اللغة بـ: « المسغبة »، تصديقا للذكر الحكيم: (أو إطعام في يوم ذي مسغبة يتيما ذا مقربة - البلد - 14). ثم تسمى بـ: « المخمصة » لقوله سبحانه: (فمن اضطر غير مجافٍ لأنف فإن الله غفور رحيم - المائدة 3). كما أثر عن النبي الأكرم قوله: (لو توكلتُم على الله حق توكله لركبكم كما يركب الطير تغدو خماساً وتروح بطناً). فالخماسية والخموص إنما تعني: الجوع الشديد المكتسح المفضي إلى الضمور والهزال حتى لتبدو الجموع الجائعة المتصورة أجداثاً تتحرك، وهياكل عظمية تمشي. وورد في معنى الجوع، لفظاً « الطوى » يقول أبو مليكة جرو، الملقب بـ: الحطيئة في قصيدة شهيرة:

وطاوي ثلاث عاصب البطن مُرمل

بتيها لم يعرف بها ساكن رَسما

أخي جفوة فيه من الإنس وحشة

يرى البؤس فيها من شرارسته نُعمى

ويبدو - من خلال المرويات التاريخية في شبه الجزيرة العربية أيام ما سمي بـ: « العصر الجاهلي »، وأيام الدعوة الإسلامية، أن عَصَبَ البطون أو تعصيبها كان أمراً جارياً مشهوداً، و« مُسْكناً » لحظياً أو وقتياً معمولاً به. يُروى عن عائشة (ض) أنها قالت: « أول بلاء حدث في هذه الأمة بعد ذهاب نبيها: الشَّبَع وكثرت، وذلك أن القوم إذا شبعوا بطونهم، سَمِنَت أبدانهم، وقَسَت قلوبهم، وجمحت نفوسهم، واشتدت شهواتهم ». وهذا كلام لا يعدو الحقيقة والواقع، سواء أقالته عائشة أم قاله غيرها.

وروي عن الرسول الأكرم أنه قال: « أجيئوا أنفسكم تفرح بكم سكان السماء ». يعلق إخوان الصفاء على ذلك بالقول إن الإنسان يكون، بإجاعة نفسه أو تجويعها، أصح جسماً، وأجود لفظاً، وأزكى فهماً، وأجلى قلباً، وأقل نوماً، وأصدق رؤياً، وأخف نفساً، وأحد بصيراً، وألطف فكراً، وأصغى سمعاً، وأصح حساً، وأثبت رأياً، وأكرم خلقاً. إذا ساعدته القناعة، كان مزرعة الفكر، وينبوع الحكمة، وحياة الفطنة، ومصباح القلب، وطبيب البدن، وقاتل الشهوات، ومُزِيل الإلهام.. الخ. (إخوان الصفاء - المجلد الأول - دار صادر بيروت - 2006 ص 358).

وهذا ينطبق، بالطبع، أكثر ما ينطبق على الجائع ذي الهمة، على الصوفي والعالم والمتبتل، والقائم بالشعائر والعبادات وبالدين، مثلاً ذهب إلى ذلك الشيخ الأكبر محيي الدين بن عربي. ولا ينطبق بحال على العوام.. على الدهماء والبهماء بتعبير فقهي. ففي جوعهم، فناء مادي حقيقي إذا طال واستطال، لأن العلم اللدني يسمى بالروح، ويعلي الهمم، ويشد البغية، ويحث على العفة والتصون، وينسي حيناً من الوقت.

هكذا، رُجّ بالجوع - حقيقة ومجازاً - في باب المطلوب والمرغوب، بما هو حالة بشرية تصيب الإنسان وتعتريه، فإذا هو - بالتبعية - إعلاء من شأن الإنسان، وموصله إلى ما به يسمو على وضاعته، وطينه ومادته، وحمائه المسنون.

ليس الإسلام هو من مهد الطريق إلى بروز

الجوع والمجاعة أو الفناء بالمعنين

